سأخبر الله بكل شيء

مجموعة قصصية

تأليف

محمد عبد السلام

طبعة ٢٠٢٠

عبد السلام، محمد.

سأخبر الله بكل شيء: مجموعة قصصية / تأليف محمد عبد السلام؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

١٨٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٧٩٠٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

سأخبر الله بكل شيء

مجموعة قصصية

تأليف

محمد عبد السلام

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٥٨٠١

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٩٠-٨

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : سأخبر الله بكل شيء

المؤلف : محمد عبد السلام

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلي من كان له الفضل بعد الله تعالى في وجودي

إلى من رباني صغيراً، ورعاني شاباً، وصاحبني كبيراً

إلى من أمرني الله تعالى أن أخفض له جناح الذل من الرحمة

إلى من فقدت بفقده أباً كريماً، وأخاً ناصحاً، ومُستشاراً مؤتمناً

إلى من سألت الله أن يرزقني بره في حياته

وأنا الآن أسأله تعالى أن يرزقني بره بعد وفاته

إلي روح أبي الغالي الحاج/ محمود عبد السلام

الذي وقف بجانبي حتي في أشد حالاتي سوءً

ليكن هذا الإهداء مقدمًا إلي روحك الطاهرة

البداية.. مشهد من التاريخ

كان يا ما كان، يا سادة يا كرام، وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام، الزمان كان غير الزمان، والمكان مش نفس المكان، ورغم إننا رجعنا بالتاريخ ألف عام، كان الحال نفس الحال، بلاد غاب عنها العدل بين الناس، وساد فيها قانون الغاب، عم الفساد بين الرعية، وانتشر بين الجميع الرشوة والمحسوبية، أتغيرت الحضارة إلي ثقافة عشوائية، وانتشر بين الشباب لُغة السُباب.

داخل مخدعه المُطل علي باحة قصره الأسطوري، وقف الملك شهريار بالقرب من الشرفة شارداً، يراقب بعينية بضع نجوم متلألئة، وبدر مُضيء في كبد السماء، شع ضيائهم الخافت الأرضِ، فلاحت البيوت وشوارع المُلك وقد اكتست سواداً باهتاً، عقد شهريار حاجبيه، بدا حزيناً عابث الوجه، خرجت زفرة حارة رغماً عنه من بين شفتين مزمومتين، لمسة حانية علي كتفه الأيمن جعله يسترد بعض من وعيه الغائب، التفت ليجد زوجته الجميلة، فقال باسماً: شهرزاد.

لمعت عيني شهرزاد جذلاً، اتسعت ابتسامتها الساحرة حتي بدت نواجذها، توردت وجنتيها خجلاً، فأطلقت تنهيدة حارة ثم قالت: تحية لك يا مليكي أقطفها لك من بساتين حُبي، فأطلق شهريار ضحكة جذلة، ثم أمسك يديها متجهاً إلي الفراش ليجلسا علي طرفه مردداً: وتحية لكِ يا مليكتي في أبهي حُلاكي وأبهى جلاليكي، فاقتربت منه شهرزاد واضعة يدها علي راحته مستفسرة: فيما كنت تفكر يا مليكي.

أمسك شهريار عن الكلام، أرخي جفنا عينيه، أطرق رأسه أرضاً، سيطر الحزن على قسمات وجهه الشاحب، أضحى أكبر وأكبر مما يبدو، علا صوت شهيقه وزفيره، ثم قال بصوت يقطر دماً: كُنت أفكر فيما يصنع الناس بالناس.. كُنت أفكر في المعركة الأبدية.. معركة الخير والشر.. المعركة التي قامت منذ قامت الحياة، منذ قتل قابيل أخاه، ثم التفت إلي شهرزاد بعيون ذائغة متسائلاً: ماذا تريدين بي يا شهرزاد، فأجابته قائلةُ بصوت هامس: خيراً يا مولاى.

نهض شهريار من مجلسه، اتجه إلي شرفة مخدعه، فدنت منه شهرزاد متنحنحة، وقبل أن تفتح فمها، أشار شهريار إلي ما خارج الشرفة قائلاً: لقد ظللتي تقدمين لي في كل ليلة أنماطاً وألواناً من الناس والحياة، حتي حاشدتي الدنيا كلها في هذا

المخدع الصغير، فما قصدك مما حكيتِ لي من حكايات، أطلقت شهرزاد ضحكة طويلة متميعة قبل أن تقول: أنا.. لا شيء أكثر من أن أسليكَ وأن أملئ لياليكَ، عقد شهريار حاجبيه وقد شكل الغضب تقاسيم وجهة الذي راح يهزه يميناً ويساراً قائلاً: لا يا شهرزاد لا.. إنك تلدغين شعوري بما تعرضينه علي من ألوان الحياة والناس.. إنك تتكلمين عن الظلم أحياناً كأنك لا تعنين سوايا.....

تحركت شهرزاد إلي داخل المخدع الملكي، انتحت ركناً يبدو مظلماً بعض الشيء، ثم جلست علي أحد الأرائك الذهبية قبل أن تطلق ضحكة جذلة وكأنها طفلة سمعت طرفة لأول مرة، اعتدلت ثم قالت خبثاً: أنا.. آلا تري يا مليكي أن في المعاريض ما يشفي؟، لم يفهم شهرزاد ما تعنيه زوجته، فعقد حاجبيه مفكراً ثم التفت إليها قائلاً، ماذا تقصدين؟!.. فأجابته وقد ضاقت حدقتي عينيها قائلةٌ: عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه، فهيهات هيهات أن يضل السبيل يا مليكي!!!!

تذكرون هذا المشهد جيداً،، حينما كُنا صغار، منذ أكثر من ثلاثة عقود تفنن الكبير أحمد بهجت، أحد أبرز كُتاب الصحافة في مصر، في كتابة أكثر مشاهد قصته «ألف ليلة وليلة» روعة، كان أخر حوار دار بين شهريار وزوجته شهرزاد، وجاء علي لسان بطلي

الحدوتة العظيمين حسين فهمي ونجلاء فتحي، كُنا صغار لم نفهم ما تعنيه شهرزاد من حديث مع مليكها، لم نعى أن ما قالته لم يكن سوي عين الحقيقة، واليوم وقد صرنا رجال، أدركنا أن هذا الملك لو كان في رأسه ذرة من عقل، لأدرك ما كانت تقصده تلك الزوجة الوفية.

"عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه.. فهيهات هيهات أن يضل السبيل".. تأملوا تلك العبارة جيداً، أسالوا أنفسكم الأن، ماذا لو توهمنا أن أصحاب الجلاله والفخامة والسمو كانوا قد أدركوا تلك العبارة، ما وصلنا ليوم تشرذمت فيه الأمة فصارت ضعيفة مستباحة، تُراق علي أرضة الدماء فتجري أنهارا، ونري الإرهاب ينخر في جسده كما ينخر السوس في النخيلَ، وفساد عفن أجبر شبابه علي الفرار ليغرق في بحاره، وشيوخ ونساء لم يجدوا سوي المقابر إيواءٌ، وأطفال وجدوا في الشوارع مسكناً، ورجال حُرمت الراحة أبدانهم.

●●●

عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه

هيهات هيهات أن يضل السبيل

شهريار القرن الواحد والعشرين

يوم من أيام الشتاء البارد، السماء كعادتها ملبدة بالغيوم، تعانقت السحب وأمطرت، بين الحين والأخر تنشق السماء عن أضواء برق مصحوبة بهزيم رعد هادر، أضفي علي المدينة لوحه كئيبة، لم يعد هناك موطئ لقدم، عم السكون الشوارع، توارت المنازل والبيوت خلف ستائر من الضباب الكثيف، اختفي عن الأعين أي أثر للحياة، رياح مضطربة وحفيف شجر وزخات مطر، وأصوات بعيدة كسرت ذاك الصمت، الذي أوحي للناظرين وكأن المدينة خاويةٌ من بشر.

داخل قصره المنيف، وفي مخدعه الأثير، تقلب شهريار علي فراشه يميناً ويساراً، يغط في نوم عميق، يلتمس بعض من دفء أغطيته، تعتلي وجهه ابتسامة إنسان يستمتع بنوم هانئ، فجأةُ، وبدون سابق إنذار، يعلو في الخارج ضجيج، هدير يقض مضجعه، فانتفض شهريار صائحًا بصوت غاضب، ماذا هناك؟، كيف تجرؤن علي إزعاجي هكذا، ثم راح ينادي: شهرزاد، شهرزاد.

اقتحم المخدع امرأة خمسينية، قصيرة القامة، تميل إلي البدانة، بيضاء البشرة، تحمل جمالاً غابرًا، يتسم وجهها بالاستدارة

المحببة للناظرين، تركت شعرها الأسود الناعم ينساب على كتفيها بحريةٌ، اقتربت من فراش شهريار قائلةٌ: أنا هنا يا مليكي، فأشار إليها شهريار بكلتا يديه صارخًا، لما تلك الضوضاء يا شهرزاد؟، لقد أقلقوا مضجعي؟، ولابد من مُحاسبة كل من شارك في هذا الجُرم الأثيم، زوت شهرزاد ما بين حاجبيها انزعاجاً وهي تقول: إنهم الرعية يا مليكي، جاءوا من كل حدب وصوب، أزاح شهرزاد غطاءه الحريري جانباً قائلاً بغضب: كيف سولت لهم أنفسهم ذلك، آلا يعلمون إنني نائم؟ كيف يجرؤون علي سرقة أحلامي هكذا يا شهرزاد؟.

أطلقت شهرزاد تنهيدة حارة مليئة بالحسرة، اقتربت منه واضعةٌ يدها علي كتفه، ثم قالت: إنهم رعيتك يا مليكي وليسوا خدم قصرك، ولاك الله عليهم فلم تؤتمن عليه، واليوم جاءوا لينزعوا منك مُلكك هذا.

أحس شهريار بارتجافةٌ تسري في أعماق جسده، ارتعدت فرائصه حتي كاد أن يتهاوى أرضاً، انساب العرق البارد يجري أنهاراً في أنحاء جسده الوهن، لم يكن لبرودة الشتاء دورٌ في ذلك، بجسد أصابه الضعف فجأةٌ التفت إلي زوجته، التي ما أن رأته حتي جحظت عيناها جَزَعًا، لم يكن الواقف أمامها ذاك الذي تحدث إليها منذ قليل بتعالٍ وعجرفةٌ، لم يكن زوجها الذي

حفظته عن ظهر قلب، بدا عجوزًا، تسلل الشيب إلي فوديه، برزت تجاعيد وجهه، انطفأ بريق عينيه، راح ينظر إليها بعيون ذائغة لا تدرك ما تراه، تحركت شفاه تردد بصوت خافت، كيف ينزعون عني مُلكي، أنا المُلك والمُلك أنا، أنا المُلك والمُلك أنا.

راح شهريار يردد جملته الأخيرة في خفوت صادم، يتنامى إلي مسامعه هدير رعية غاضبة، تهتف بكلمات ما تخيل أنه سيسمعها في أشد كوابيسه رعبًا، الشعب يريد إسقاط النظام، ما أغربها من كلمات، تَنَاهَى إلي أذنيه كل الأصوات، صراخ نساء مُلتاعة، نحيب أطفال شابوا قبل الأوان، صياح مُنكسر لرجال فقدوا الحيلة، في حين غاب صوت الشباب عن تلك الغزوة، فهم إما قضوا غرقًا بحثًا عن حياة جديدة، وإما خلف غياهب السجن يقبعون، فأشار شهريار بيديه إلي النافذة قائلاً، أسمعتي يا شهرزاد، ناكرو الجميل، لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا؟، دنت شهرزاد من زوجها قائلةٌ، لم تفهم يا مليكي ما قُلته لك قديمًا، لقد أخبرتك أنه عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه.. فهيهات هيهات أن يضل السبيل.

لم يعد شهريار قادرًا علي التحمل أكثر من ذلك، تهاوي جسده المُنهك علي الأريكة المجاورة للفراش، رجع برأسه إلي الوراء مستسلمًا، أغمض العين، وأطلق تنهيدة بالغة العُمق، وبدا

وكأنه يتذكر ما لم يفهمه، ولكنه يؤلمه، اليوم أدرك ما كانت تعنيه زوجته، واليوم عليه أن يتحمل ما تجاهله أعوام، لم تتفوه شهرزاد بأي كلمةٌ، سكتت أخيرًا عن الكلام المُباح، ولم يعد هناك صوتٌ يعلوا فوق صوت الرعية.

اقتربت شهرزاد من زوجها وقد دمعت عيناها، ثم جلست علي الأرض بالقرب من قدميه، قبل أن تقول مواسيةٌ: هون عليك يا مليكي، مازال في العمر بقيةٌ، ويمكن أن تفعل الكثير لتستعيد رعيتك، هب شهريار فجأةٌ وقد عادت الروح إلي جسده قائلاً، أهناك أمل يا زوجتي، جذبته شهرزاد من يده لتجبره علي الجلوس مرددةٌ: عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه.. فهيهات هيهات أن يضل السبيل، فقط استمع لحكاوي رعيتك يا مليكي، ففي حكاويهم عين الحقيقية.

وكأن روحه رُدت إليه، عاد لقلبه الخفقان من جديد، تورد جسده بدماء الحياة، هكذا أحس شهريار، هناك أمل إذن، مازال في العمر بقية، حُلم البقاء علي سده المُلك مازال مشروعاً، نهض شهريار من كُرسيه وطرح جسده أرضًا إلي جوار شهرزاد قائلاً بصوت عاد إليه حماسته، هلُمي يا شهرزاد، أعلني عن موافقتي استقبال الوفود من رعيتي لأستمع إلي شكواهم، صاحت شهرزاد وقد طفح منها الكيل، وبلغ السيل الزبي، أولم تعلم يا مليكي

شكوى رعاياك، لقد ظللت أقدم لك في كل ليلة أنماطاً وألواناً من الناس والحياة، حتي حشدت الدنيا كلها في هذا المخدع الصغير، كنت أتكلم عن الظلم أحياناً ولم أكن أعني سواك.

اضطرب وجه شهريار خجلاً، فما تقوله زوجته سبق وأن قالته منذ ألف عام، فأشار إليها قائلاً وهو يعتدل في مجلسه، إذن ذكريني يا زوجتي الحبيبة، عل الذكري تنفع المؤمنين، تنحنحت شهرزاد وقالت: إذن اسمع يا مولاي، بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في أرضنا ولد جيل، من المحيط إلي الخليج، لم يرضي عن الكرامة بديل، وقف أمام ظالم عتيد، عاث زبانيته في الأرض فسادا، انتهكوا الأعراض وسلبوا العبادا، ولم يكن من عدالةٌ تحمي الرعية، بعد أن فرق القانون بين الظالم والضحية.....

●●●

الحكاية الأولي

مشهد متكرر: (نهار خارجي– سوق الهيثمي– مدينة القاعدة– محافظة أب– اليمن– ليلة السادس والعشرون من شهر رمضان)

كعادة الأيام الأخيرة لشهر رمضان من كل عام، خرج أغلب سكان المدينة الصغيرة إلي الأسواق التجارية، اصطحب الأباء والأمهات أطفالهم بحثًا عن ملابس جديدة، فالعيد علي الأبواب، والأطفال في حاجة لأن ينسوا قليلاً صوت الرصاص، أرادوا لهم أن يشموا رائحة غير تلك الرائحة التي اعتادوا عليها، رائحة الدماء.

«أمي هذا الحذاء جميل».. أمام فاترينة إحدي متاجر الأحذية المنتشرة بسوق الهيثمي انطلق هذا الصوت، طفل صغير يجذب يد أمه لتتوقف قليلاً، كان يشير إلي حذاء أثار إعجابه، أخرجت الأم كيس النقود لتطمئن إنها تمتلك ثمن الحذاء، وعندما وجدت أنها قادرة علي شراءه، تنهدت بصوت مسموع وهي تلتفت إلي طفلها قائلةً: بصوت مرح، «سنشتريه يا بني، سيكون جميلاً عليك».

لم ينتظر الطفل حتي تنتهي أمه من حديثها، انطلق ضاحكًا إلي داخل المتجر صائحًا، «مرحى أمي، حذاء جديد، حذاء

جديـد»، لـم تصـدق الأم أذنيهـا، أخيـرًا صغيرهـا عـرف للسـعادة طريـق، فأسـرعت وهـي تـردد مـا يقـول، «مرحـى مرحـى، حـذاء جديـد»، لـم تعبـأ الأم بدهشـة العاملـين بالمتجـر، ولا بنظـرات الإشـفاق التـي رماهـا بهـا البعـض، فأمـام عينيهـا طفـل حُـرم السـعادة منـذ أن سـيطر العنـف علـي تلـك البلـدة المتألمـة، طفـل لـم ينتظـر ليخرجـوا لـه حـذاءه، فـراح يحـاول فتـح تلـك الفاتريـنـة الزجاجيـة بأطـراف أصابعـه الصغيـرة.

مـن يـري الطفـل لـن يصـدق تلـك الحالـة التـي يعيشـها الأن، لمعـة عينـاه الضيقتـان، تلـك الابتسـامة الواسـعة التـي ملئـت وجهـه حتـي كادت أن تخفـي وجنتيـه السـمراوين، كفيـه اللـذان لـم يتوقفـا عـن التصفيـق بهجـة بـأول حـذاء سيشـتريه منـذ أن قُتـل والـده ذبحـاً علـي بـاب منزلهـم، عمـال المتجـر أدركـوا مـا يعتمـل في قلـب الصغيـر، فأسـرع الجميـع ليحضـروا لـه حـذاءه، علهـم ينعمـون بضحكاتـه الجذلـة مـن جديـد، ومـا أن جـاءوه بـه حتـي أسـرع بكفيـه يلتقـط مـا حلـم بـأن يقتنيـه ليـالٍ طـوال، احتضـن الصغيـر حـذاءه، راح يحلـم كعادتـه، فقـد رأي الحـذاء يزيـن قدميـه الصغيرتـين.

التفـت الصغيـر إلـي أمـة التـي وقفـت صامتـة دامعـة العينـين، رفـع الحـذاء إليهـا قائـلاً بصـوت هامـس، «أريـد أن أرتـدي الحـذاء.. سـاعديني يـا أمـي»، أسـرعت الأم لتخفـي دمعـةٌ حاولـت أن تفـر مـن

سجن عينيها، التقطت الحذاء من يد صغيرها، جلست القرفصاء أمامه، بينما جلس هو علي أحد المقاعد رافعاً قدميه الاثنتين ضاحكًا، انتهت الأم من مساعدته في ارتداء الفردة الأولي من الحذاء، التفتت لتلتقط الفردة الثانية، بطرف عينيها شاهدته، أشعث يرتدي جلباب قصير أبيض، يلف وسطه بحزام ناسف، يندفع إلي السوق صارخًا، «أللّه أكبر»، ثم انتهي كل شيء.

مسقط رأسي من ذلك المكان الذي شهد أسعد لحظات طفلٍ، لم يعد كما كان، انقلب كل شيء رأساً علي عقبِ، اختفت ضحكات طفلً شقي أراد أن يقضي العيد بحذاءً جديد، لم يبقي سوء تلك الرائحة التي اعتاد عليها منذ أن ولد، رائحة دماء، وشواء لحم بشري، الفارق الوحيد أنه لم يعد قادراً علي أن يشتم تلك الرائحة التي زكمت الأنوف، فقد تبعثر جسده وأمه إلي أشلاء هنا وهناك، يا لسخرية القدر، علي أحد أركان المتجر المحترق، كانت هناك قدمه ترتدي ذلك الحذاء، وإلي جواره يد أمه تمسك الفردة الأخرى، وكأن القدر أبي أن يفارق الصغير حذائه، فقرر أن يجتمعا معاً، بقدم صغير حلم به، وبكف أم عاشت لتُسعد صغيرها.

●●●

داخل المخدع، وقفت شهرزاد أمام شرفة القصر، تقول: وكانت تلك يا مولاي حكاية الصغير وأمه، عاشا يحلمان بلحظة سعيدة، ولما أتت ظنا أنهما سيعيشان طويلا، صمتت شهرزاد برهةٌ، وعندما لم تتلقي جواب، التفتت إلي الملك شهريار، الذي تململ في الفراش ثم قال مهمهماً: وماذا بعد أكملي، إبتسمت شهرزاد وقالت متنهدةً، وبعد،، يجب أن تنام يا سيدي، فصاح شهريار بصوت عالٍ منادياً: مسرور، أقصد عشماوي، فدنت منه شهرزاد متزمرة قائلةً: مولاه..... أطلق الديك صياحه معلناً ميلاد يوم جديد، وعندها أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.....

●●●

علي أنغام موسيقي هتافات الشعب الغاضب، راح شهريار يتحرك باضطراب ملحوظ داخل مخدعه ذهابًا وإيابًا، بين الفينة والأخرى يقترب من الشرفة المطلة علي باحة قصره بحذر مرتاب، تنتابه هواجس مجرد التفكير فيها يفزعه، هل يجرؤون علي اقتحام قلعته، هل يقتصون منه عقابًا علي تجاهلهم، إنه لا يجرؤ حتي علي الخروج الي حديقة قصره، كيف له كحاكم للبلاد أن يتم وضعه تحت الإقامة الجبرية حفاظاً علي حياته، توقف فجأة عن الحركة بجوار الشرفة، قبل أن يقول صائحًا بصوت غاضب:

«سأجعلكم تندمون علي فعلتكم تلك.. لن تهنئوا بعد اليوم.. أنا تفعلون معي هكذا.. أنا تحبسونني داخل مخدعي كالنساء».. ثم دلف إلي داخل مخدعه هاتفاً: «شهرزاد.. أين أنتِ».

لم تكد شهرزاد تسمع نداء زوجها شهريار حتي اقتحمت مخدعه دون استئذان، يبدوا عليها الإنهاك الشديد، كانت كأنما هرمت في ساعات قليلة، شحب وجهها كثيراً، انتفخ جفني عينيها المحمرتين، تهدلت وجنتيها المصفرتين، كانت كمن بات ليلته يبكي بلا توقف، أمام هيئتها تلك وقف زوجها بلا حراك لا يجرؤ علي الكلام، يدرك جيداً حجم ما يعتمل في صدر زوجته من آلام، أطرق برأسه خجلاً، يخالجه شعور بالمسئولية والعجز، مسئولية اهتياج الرعية، والعجز عن إصلاح أي شيء، دون أن يرفع عينيه لزوجته قائلاً بصوت هامس: «ألن تكملي لي حكاوي شعبنا يا زوجتي الحبيبة»، سمع تنهيدة شهرزاد الهادئة، رفع رأسه متشجعًا قبل أن يقول وقد عاد إلي صوته العناد: «ولكنني أرفض تحمل مسئولية مقتل ذلك الصغير.. لقد قتله ذلك الأشعث.. فما ذنبي أنا».

كعادتها كلما ضاقت بما يقول شهريار وضعت شهرزاد كفيها علي رأسها، ثم أمسكت ببعض خصلات شعرها وكأنها تهم بنزعها، قبل أن تلتفت لتجلس علي أحد الأرائك المواجهة لشرفة المخدع، ثم أشارت إلي باحة القصر قائلة بصوت حانق:

«كيف هذا يا مولاه.. هذا الأشعث كان أحدهم يوم ما.. لم يولد ليعيش إرهابيًا ينسف نفسه في وجه الأطفال والنساء.. كان يمكن أن يكون إنسانًا طبيعيًا لولا ما تعرض له»، اقترب شهريار من زوجته، جلس كعادته بجوار قدميها قائلاً: ما أسم هذا الأشعث، فأجابته دون تردد: جمال، فزوي ما بين حاجبيه الرفيعين قائلاً: «أحكي لي كيف أصبح هذا الـ«جمال» إرهابيًا.. ومن الذي دفعة لتفجير نفسه هكذا»، نزلت شهرزاد لتجلس بجوار زوجها علي الأرض قائله بطريقتها المعهودة: «اسمع يا مولاه.. بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في احدي مساكن العشوائيات، عاش مدرس يدعي جمال له باع في الرياضيات....

●●●

الحكاية الثانية

كعادته فجر كل صباح، ما أن ينطلق رنين المنبه الصغير المجاور لفراشة حتي يهب واقفًا، يبدو حيويا تمتلئ نفسه نشاطًا عجيبًا، رغم برودة شتاء ديسمبر، ورغم ما يعانيه من إحباط مازال يعتريه أمل أن ينصلح حاله، راح يتمطع نافضًا عنه كسل حنين العودة إلي الفراش مرة أخري، اتجه إلي دولابه الصغير، تناول بعض الملابس النظيفة قائلاً بصوت مرح: «نلحق نغير القميص قبل ما يدوب.. يمكن حضرة الناظر يغير رأيه ويعاملني كمدرس رياضيات مش مجرد كشكول».

لم يشعر جمال مدرس الرياضيات ابن الثامنة والعشرين من عمره بأمه العجوز التي تقف خلفه مُحملقة، تراقب ابنها الوحيد بعين مُشفقةٌ، شيء ما جعلها لا تغمض العين منذ ودعته ليلة أمس، باتت ليلتها تصلي وتدعي له، كأن شيء ما سيصيب وليدها، اضطراب قلبها، ارتجافة جفنيها، تنبئانها بذلك، التفت جمال ليجد أمه تقف هكذا بلا صوت، فقال بصوت هادئ: «فيه إيه يا أمي.. أنت صحيتي بدري ليه»، تنهدت أمه قائله بصوت غلب علية التوتر: «أنا منمتش طول الليل.. قولت ألحقك قبل ما تنزل تصلي الفجر»، ألقي جمال ملابسه علي الفراش قبل أن

يقترب من أمه قائلاً: «خيراً يا أمي»، وكأنها تستعد لإطلاق حمل جاثم علي صدرها تنهدت بصوت مسموع، ولكنها ترددت فلم تقل شيئًا، فقط ابتسامة حانية أطلت من عينيها، لا شيء يا بني.. فقط اعتني بنفسك، ثم التزمت الصمت.

لم يكن جمال ذلك الشاب الذي استيقظ منذ قليل يملؤه الأمل، أضحي وكأنه شخص أخر، تبدلت هيئته فجأة، انطفئ بريق عينيه، ارتعدت أوصاله، ودع أمه وكأنه يراها للمرة الأخيرة، خرج من منزله المُطل علي تلك الحارة الضيقة يتساءل، لما يكذب علي نفسه هذا الصباح، إن قلبه يشعر بمثل ما يشعر قلب أمه، هناك خطب ما سيحدث، ما حدث لأخويه عادل ومنصور مازال ماثلاً أمام عينيه، يدرك أن دوره قد حان ليدفع ثمن ضعفه وقلة حيلته، في تلك الأثناء ارتفع صوت المؤذن معلناً بدء صلاة الفجر، فأسرع الخطى منفضًا ما علق في رأسه من ذكريات أليمة.

أنهي جمال صلاته سريعًا، حاول كثيرًا أن ينهض، لكن عقله المُثقل بالهواجس آبى أن يطاوع إرادته، استسلم لتلك الحالة الرافضة لمغادرة المسجد، دون أن يشعر اقترب منه أحدهم، عظيم الجثة، عريض المنكبين، كث اللحية، أسمر البشرة، يغطي رأسه بشال أبيض، يرتدي جلباب رمادي قصير، أسفله سروال من نفس اللون، وضع كفه الغليظ علي كتفيه قائلاً: تقبل الله يا أستاذ

جمـال، شـاردًا التفـت إليـه، وقبـل أن يجيبـه اقتحـم المسـجد بعـض الرجـال، انقضـوا علـي الجميـع، قيدوهـم، ألهبـوا أجسـادهم بالعصـا، ثـم حملوهـم، وداخـل سـياراتهم وضعوهـم، وفي مـكان مجهـول عذبوهـم، ودون محاكمـات ألقـوا بهـم في غياهـب السـجن.

سـنوات طويلـة مـرت، وجمـال داخـل السـجن، لا يعلـم، أي ذنـب ارتكـب يسـتحق معـه ذلـك العقـاب، ماتـت أمـه حسـرة عليـه، ماتـت دون أن تعلـم أيـن هـو، دون أن تـراه، ومـع مـرور الأعـوام، لـم تُغلـق أبـواب الماضـي، ولـم تُفتـح أمامـه أبـواب الحاضـر، ولـم يـدري كيـف سـيطرق أبـواب المسـتقبل، أي حاضـر ينتظـر بـرئ تعـرض لمثـل هـذا الظُلـم، وأي مسـتقبل يمكـن أن يتعايـش معـه مجـرم لـم يرتكـب جُـرم، بيـد انـه وجـد ضالتـه مـع الأميـر، شـيخ عظيـم، عـده رسـول، أنزلـه اللّه بالهـدى، رأي فيـه العـدل الـذي حُـرم منـه، رفـع رايتـه، حمـل سـيفه، وأقسـم أن يقتـص مـن مُعذبيـه، وأن يُطيـر رقـاب ظالميـه.

●●●

داخـل المخـدع، جلسـت شـهرزاد أمـام فـراش زوجهـا، تقـول: وكانـت تلـك يـا مـولاي حكايـة الأشـعث جمـال، عـاش يحلـم بحيـاة لـم يهنـأ بهـا، فمـات بحثـاً عـن مـا عـاش يحلـم بـه في الآخـرة، صمتـت شـهرزاد برهـةٌ، وعندمـا لـم تتلقـي جـواب، التفتـت إلـي الملـك شـهريار، الـذي تململـ في الفـراش ثـم قـال مهمهمـاً: ومـاذا بعـد أكملـي،

فتبسمت شهرزاد وقالت متنهدةً، وبعد،، يجب أن تنام يا سيدي، فصاح شهريار بصوت عالٍ منادياً: مسرور أو عشماوي، أي منكم، فدنت منه شهرزاد قائلةً: سيدي..... أطلق الديك صياحه معلناً ميلاد يوم جديد، وعندها أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.....

●●●

«كيف يجرؤون.. هل نسوا من أنا».. بدا شهريار ثائرًا هذا اليوم، ملئ غرفة الاجتماع والمشورة صراخًا وضجيجًا، فما يقوله الوزير الأول لمُلكه لا يُصدقه عقل، الرعية ترفض الحوار، ولا ترضى عن رحيله بديل، اقتحمت الغرفة شهرزاد تستطلع الأسباب، فأتاها صوت زوجها يقول: سأدمرهم جميعًا، سأقضي عليهم، فزوت ما بين حاجبيها اعتراضًا، لا يا سيدي، ستقضي علي أخر خيط يُخلد ذكراك، ثم أشارت إلي وزيره قائلة: دع الحاكم ليسترح قليلاً وسيأتيك بالخبر اليقين.

خلت الغرفة، لم يبق سوي شهرزاد وزوجها، لم تنطق بكلمه واحدة، سكتت عن الكلام المباح، راحت تراقب شهريار بعين ملؤها الشفقة، تدرك ما يعتريه من هواجس هول الصدمة، ملكٌ كان يأمر فيُطاع، واليوم حُبس في قلعه لا يجرؤ علي الخروج، دون أن يلتفت إليها سمعته يهمس قائلاً: «آريتِ يا شهرزاد، رعيتي

ترفض الإنصات، لا ترضي عن رحيلي بديل»، دنت شهرزاد منه، ربتت بيديها علي كتفه قائلة: «هون عليك مولاه، أنت تعلم شعبك سيدي، لا يوجد علي الأرض أرحم منه، فقط دعه يشعر أن له زعيم عادل يرعى مصالحه».

التفت شهريار فجأة إلي زوجته، علت وجهه قسمات حادة، أطل الشرر لوهلة من عينين غائرتين، برزت أسنانه التي بدت صفراء لامعة، كحيوان مفترس أطلق زمجرة وحش كاسر، طفا الزبد ثغرات فمه الواسع، علا الفزع وجه شهرزاد، خُيل إليها أنها تقف أمام وحش يستعد للافتراس، وحش فقد فجأة كبريائه، قرر أن ينتقم من الجميع، تراجعت إلي الوراء بهدوء حذر، حاولت أن تفهم ما يقول: «عن أي مصالح تتحدثين يا شهرزاد.. أنا لم ارتكب شيء علي الإطلاق.. استمعت إلي نصائحك وحاولت أن أسمع شكواهم.. ولكنك تلقين علي مسامعي اتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.. كيف تربطين بين ذلك الأشعث جمال وما ارتكبه من إرهاب بظلم تعرض له، والأدهى أنك تلصقين ما تعرض من ظلم بي».

أيقنت شهرزاد أن مليكها ما عاد به قدرة علي الوعي، تدرك أن نفسه تأبى مزيد من الحكايا، وانه ما يستمع إليها إلا ليغسل يديه أمام الرعية، والأدهى أنه يتنصل من كل فعل مُشين، يتهمها بأنها تشارك في إلصاق الظلم به، هوت بجسدها علي أقرب أريكة منها، نظرت إلية بعينين ملؤها الانكسار، ثم قالت: «ما

اعرضه عليك لا يعفيك من المسئولية مولاي.. أنت من قال إنني ألدغ شعورك بما أعرضه عليك من ألوان الحياة والناس.. وأنني أتكلم عن الظلم أحياناً وكأنني لا أعني سواك».

بوجه منكسر اختفت منه معالم التوحش اقترب شهريار من مقعدها، كعادته جلس أسفل قدميها مطأطئ الرأس، أسدل ستائر جفنيه ليحبس دمعة حاولت أن تفر، بصوت لاهث، دامع، قال: «قُلتِ لي يا مليكتي إنه عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه، فهيهات هيهات أن يضل السبيل.. وهاأنذا لا أري يا مليكتي سوي أخطاء الآخرين»، رفع شهريار عينيه المبللتين بالدموع، ليذهل هذه المرة زوجته التي فغرت فاها معلنة عن دهشة ما تري، شهريار يبكي.

قبل أن تتفوه بكلمة، وضع يديه علي شفتيها قائلاً: «أثناء حديثك عن الأشعث جمال ذكرتِ أخوية عادل ومنصور، ماذا ألَّم بهما، وهل لي علاقة بما أصابهما، لاح علي شفتي شهرزاد شبح ابتسامة، أدركت أنه مازال هناك أمل، أطلقت تنهداتها المعتادة قبل أن تقول: «لكي تعرف الإجابة يا مولاي عليك أن تنصت إلي قصتهما.. وسأبدأ بعادل أولاً.. اسمع يا مولاه.. بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في إحدي الجامعات، درس عادل الزراعة، وحلم أن يُعمر الصحراء.....

●●●

الحكاية الثالثة

«يا صحرا لمهندس جاي.. قال هيخلى ترابك أموال.. الحصوة تنباع بريال.. والحجر بريال وشوي».. مازال الوقت مبكراً، سكن كل شيء إلي عشه في تلك القرية الصغيرة، الناس في بيوتها، والحيوانات في جحورها، والطيور علي أعشاشها، لم يستيقظ أحد بعد، فالفجر لم يؤذن، داخل إحدي المنازل البسيطة وقف ذاك الشاب أمام المرآة يعدل هندامه، فتي صغير، أنهي مؤخرا دراسة الزراعة، عاش سنوات عمره يحلم باليوم الذي سيعمر فيه الصحراء، واليوم سيحقق ما حلم به، سينطلق إلي تلك البقعة الجرداء ليطبق ما تعلمه علي الأرض البور، لذلك استيقظ مبكراً، وكعادته كلما انتابته الحماسة، يُثير تلك الضوضاء، وقف أمام المرآة يردد كلمات بيرم التونسي الخالدة، تلك التي لحنها منذ ستون عاماً أحمد صدقي، وتغني بها الفنان سيد إسماعيل.

وسط الجلبة التي يصنعها عادل، لم يلحظ جمال، أخيه الذي يشاركه تلك الغرفة الصغيرة، أيقظته تلك الضوضاء، لكنه لم يعلن عن ذلك، فقط، فتح عينيه صامتًا، يراقب شقيقه مشفقًا، يدرك ما يعتمل في قلبه من مشاعر صادقة، فتي حلم طويلاً، ظن أن أحلامه ستتحقق، ولكنه ظن من النوع الأثيم، هكذا دائمًا

ما كان يمازحه، فكان لا يلقي بالاً، ينظر إليه كأنه طفل صغير، بيد أن جمال رغم أنه يصغره بثلاثة أعوام، كان عين الحكمة التي تنقص شقيقه، يدرك أن الأحلام لا نراها إلا في المنام.

مرت أيام، وأسابيع، وشهور، لم يعد عادل ذلك الفتي الذي تغني يومًا بالأمل، كان يظن أن حلمه قريب، سيصدق أخيرًا شقيقه جمال، أنه من النوع الأثيم، هذا الصباح استيقظ كعادته عند الفجر، جلس أمام منزله الصغير يحتسي كوب من الشاي، ينظر إلي الأرض البور التي حصل عليها ليُعمرها، جاء منذ بضعة أشهر يحدوه الأمل، من يري بريق عينيه طيلة رحلته الأولي، من يسمع خفقان قلبه لحظة أن وطأت قدميه تلك البقعة، سيدرك ما كان يأمله ذلك الفتي، يومها التقط حفنه من رمالها، وأقسم أن يزين صفرتها باللون الأخضر، وها هو اليوم لا يفعل شيء سوي الجلوس علي باب منزله يحتسي الشاي، ويستمتع بالهواء النقي، وقد حنث بقسم لم يملك البر به لحظة.

«لِساك بتحلم يا صاحبي».. علي صوت زميله عيسي انتفض عادل، ظن أنه لا أحد غيره قد استيقظ مبكراً، وعليه الأن أن يعتاد ذلك، فذاك ظن من النوع الأثيم، فاعتدل مبتسمًا، ويحك يا فتي، لقد أفزعتني، بمرحه الصعيدي خفيف الظل اقترب عيسي، شاب اسمر ككل أهل النوبة، جاء حالمًا، لم يختلف حلمه عن ما

كان يحلم به جاره عادل، جاء قبله بأسابيع قليلة، حاول كثيرًا أن يهون عليه، تظاهر أمامه بالمرح واللامبالاة، وما أن يأوي إلي فراشه حتي تدمع عينيه، لم يكن هذا ما رآه في أحلامه، ولا حتي في أحلك كوابيسه، تساءل كثيرًا، هل أخطأ لأنه في ليلة راوده حلم، جلس بجوار عادل، تناول من يديه كوب الشاي، ارتشف رشفتين سريعتين، قبل أن يقول ساخرًا، كيف لرجل مثلك عاشر العقارب والثعابين ليال طوال يفزع هكذا يا فتي.

بدى سؤال عيسي عجيباً علي أذني عادل، لم يدرك إجابة له، ولكنه منحه سؤالا جد أعمق، ما الأكثر رعبًا هنا، العقارب والثعابين، أم اغتيال حلم عشناه سنين، لم يدرك أن سؤاله هذا سيعبر سجن فيه، فتسربت من بين شفتيه همهمة، فهمها الفتي النوبي، فأسرع يجيبه مهونًا، الأحلام لا تموت يا صديقي، أطلق عادل ضحكة ساخطة، الأحلام لا تموت، وأجساد الحالمين أكلها دود الجيف، ثم التفت إليه قائلا: يا عيسي أجسادنا ماتت قبل أحلامنا، نحن لا نفعل أي شيء، لماذا جاءوا بنا إلي هنا، الأرض البور تفتقر لكل شيء، لا ماء، لا كهرباء، لا طرق ممهده، مزارعنا الصغيرة لم تري اللون الأخضر الذي حلمنا به، منحوا الكبار كل شيء، ونحن لم يمنحونا أي شيء، لا الكبار زرعوا أراضيهم، ولا الصغار رأوا اللون الأخضر بعد، وها نحن ننتظر مكافأتنا، السجن، وكأننا مذنبون.

كشريط سينمائي مرت الأيام ثقيلة علي عادل، نفذت مدخراته، تراكمت ديونه، ومثله كل زملاءه، هجروا الصحراء، تركوها لهم بور، وعلي شاطئ البحر انتظروه، وقفوا وسط المئات من الفارين، وفي جُنح الظلام شاهده، الموت العائم، قارب صغير، مهترئ البنيان، لا يحتمل أكثر من نصفهم، كالأنعام حشروهم واحد تلو الأخر، لم يعلن القارب عن رفضه، حتي ظنوه يصرخ هل من مزيد.

بإصرار عجيب تحرك القارب ببطء، علي متنه خيرة شباب الأمة، فارين، ليس لذنب جنوه، ولكن لحلم تمنوه، في عرض البحر، لم يعد لدي القارب قدرة علي التحمل، فناء بحمله يمينًا ويسارًا، بكي عادل كثيراً، لم يصرخ طلبًا للنجدة، لم يهتف آملاً للغوث، صرخ كثيرًا علي أرضه ولم يجد مُجيب، الأن يرجو الموت، عل قروش البحر أرحم من كروش البر، وعله يجد في الموت واحة لحلمه بعيدًا عن أرض الفاسدين.

●●●

داخل المخدع، جلست شهرزاد أمام فراش زوجها، تقول: وكانت تلك يا مولاي حكاية شقيق الأشعث، عادل، فتي لم يجد في أسمه نصيبًا، حلم يومًا أن يبني وطنه، ظن أنه قادر علي ذلك، لكنه تعلم أن هذا الظن من النوع الأثيم، تركوه يموت جسدًا قبل

أن يموت ما حلم به، صمتت شهرزاد برهةً، وعندما لم تتلقي جواب، التفتت إلي الملك شهريار، الذي تململ في الفراش ثم قال مهمهماً: وماذا بعد أكملي، فتبسمت شهرزاد وقالت متنهدةً، وبعد،، يجب أن تنام يا مولاه، فصاح شهريار بصوت عالٍ منادياً: مسرور مسرور، فدنت منه شهرزاد قائلةً: مولاه..... أطلق الديك صياحه معلناً ميلاد يوم جديد، وعندها أدركت شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.....

●●●

«بسم الله الرحمن الرحيم.. أيها المواطنون.. في هذه الظروف العصيبة.. التي تمر بها البلاد.. قرر جلالة الملك المُعظم شهريار.. تخليه عن عرش المملكة.. وكلف مجلس الحكماء إدارة شئون الرعية».. بوجه شاحب خلت تقاسيمه من الحياة، جلس شهريار علي أريكته يسمع قائد عسسه يدلي بيان عزله، ذلك الذي ظنه يومًا من الموالين، واليوم أصابه ذلك الذي اعتاد أن يكون من النوع الأثيم، اليوم يستعد للرحيل، اليوم يُنزع عن تاج المُلك، تاج عاش من أجله، وعاش به.

علي يمينه جلست تلك السيدة، لم تكن أقل منه شحوبًا، لم تكن أقل جزعًا، ليس علي مُلك زائل، بل علي مليك يكاد تُنتزع روحه، مليك لم يستمع إليها يوم أن نصحته، لقد ظلت تقدم له

في كل ليلة أنماطاً وألواناً من الناس والحياة، حتي حشدت الدنيا كلها في مخدعه الصغير، كانت تعنيه، كانت تتحدث عن الظلم وكأنها لا تعني سواه، كعادته لم يفهم رسالتها، لم يعي ما قالته له منذ ألف عام، أنه عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه، فهيهات هيهات أن يضل السبيل.

بينما كان شهريار مُنشغلاً ببيان قائد عسسه، تناهي إلي مسامعه صوت إنفجار شعبً، إنفجار كاد يطرحه أرضًا، لولا جلوسه علي ذلك العرش، إنفجار كاد ينتزع قلبه من ذلك الصدر الذي ضاق همومه، ما تلك الفرحة التي انطلقت في ربوع المدينه؟، لقد عاش طيلة عمره يعتقد أنه ملك زمام تلك الرعية، بعد أن ظن أنه قد ملك الأرض وما عليها، واليوم يسترد جزء من وعيه الغائب، تلك الرعية ما عادت ترغبه، ما عادت تريده حاكمًا عليها، واليوم تطالب بمعاقبته علي ما جناه.

«لا تحزن سيدي.. كان عبئًا ثقيلا.. كان صرحًا فهوي.. وآن لجوادك أن يستريح قليلا».. عبارات مترددة ألقتها شهرزاد لملك فقد القدرة علي الانصات، تحاشت كثيرًا أن تلتقي عيناها بعينه خشية الإنكسار، لم تكن تدرك أنه لم يكن هنا، داخل هذا المخدع، كان الجسد حاضرًا، بلا حياة، بلا روح، بلا أي شيء يعبر عن الوجود، رغم ذلك سمع كلماتها، فهم ما قالته، انتفاضة جسده،

ارتعاشة أطرافه، أنبأتها ذلك، ببطء إلتفت إليها، يهبط صدره وينخفض هلعًا، وعينان زائغتان، قبل أن يقول بصوت خافت، هي النهاية إذًا شهرزاد.

حاولت شهرزاد أن تبتسم في وجه زوجها، لكن محاولتها باءت بالفشل، كيف لها أن تُظهر ابتسامة مطمئنة، كيف لها أن تخدع رجلاً عاش سنين يعتقد أنه سيد هذا الأرض، واليوم يُجبر علي ترك العرش، بعين منكسرة راحت تتأمله، لم يكن ذلك الرجل الذي عاشت معه عشرات السنين، رجل أثقلت الهموم كاهلية، ذبلت عيناه كالمحموم، شحب وجهه كالمسلول، زحف الشيب فجأة علي تقاسيم وجهه، كان يثير في النفس مشاعر الأسي والألم، دون أن تشعر وضعت يدها علي كتفيه قبل أن تطلق تنهيدة حارة قائلة: ليست النهاية سيدي، قد تكون بداية جديدة، حياة سعيدة تهنأ بها.

انتفض شهريار من مجلسه صارخًا، حياة سعيدة أهنأ بها، آلا ترين يا شهرزاد، الجميع يرفضني، الجميع يطالب برأسي، أنا الذي لم ابخل عليهم بوقتي، وصحتي، طبقت عليهم تعاليم ثورتنا العظيمة، كيف يطالبونني بالعيش وهم يأكلونه بأرخص الأسعار، كيف يطالبونني بالحرية وهم يتحدثون لغوًا ليل نهار، كيف يطالبونني بالعدالة الإجتماعية وقد جعلتهم سواسية كأسنان

المشـط، كان شـهريار كالهائـج، يتمايـل يمينًـا ويسـارًا كالسـكاري، لا يعلـم ايـن تقـوده قدمـاه، حتـي اصطـدم بهـا، زوجتـه، شـهرزاد، صامتـه، باكيـة، تجـري الدمـوع علـي وجنتيهـا أنهـارًا.

كالأطفـال جثـا شـهريار علـي ركبتيـه أمـام زوجتـه مسـتعطفًا، هونـي عليـك زوجتـي، كل الحيـاة مغـادرة، لـم يعـد لـي في هـذه الدنيـا سـواك، فليذهـب العـرش إلـي الجحيـم، لـم أرتكـب جُرمًـا ولا عصيانـا، فعلـت مـن أجـل هـذا الشـعب مـا يجعلنـي مُطمئنًـا، فجـأة أطلـق شـهريار ضحكـة صغيـرة، حـاول مـن خلالهـا تغييـر دفـة الحديـث، ثـم راح يهـز رأسـه ويديـه متسـائلاً بصـوت سـاخر: آلـن تُكملـي قصـة تلـك الأسـرة المنكوبـة يـا شـهرزاد؟، حدثتينـي فيمـا مضـي عـن أمـر هـذان الشـابان جمـال وعـادل، وكيـف أنهمـا تعرضـا لأبشـع صنـوف الظلـم والقهـر، وقـد ألصقتـي بـي فسـاد مـا تعرضـا، ولكنـك لـم تخبرينـي بأمـر الشـقيق الثالـث، فهـل أصابـه شـائنه ترغبـين في إلصاقهـا بـي أيضًـا.

أطلقـت شـهرزاد ضحـكات متقطعـة، سـعت كثيـرًا لمجـاراة زوجهـا بهجتـه الزائفـه، ثـم راحـت تضـرب بقبضتهـا علـي كتفيـه قائلـة: يـا مـولاي أنـت راع ومسـئول عـن رعيتـك، إلتفـت إليهـا شـهريار فجـأه وقـد انعقـد حاجبيـه قائـلاً: لا يـا شـهرزاد، كلنـا راع وكلنـا مسـئول عـن رعيتـه، فالإمـام راع ومسـئول عـن رعيتـه، والرجـل راع في أهلـه وهـو

مسئول عن رعيته، والمرأة راعيه في بيت زوجها، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم أيضًا راع في مال سيده، ما يعني أننا داخل تلك المملكة مسؤولون عن ما حدث، ويحدث حتي الأن، أجابته شهرزاد وقد استردت شيء من عنادها، يا مولاي كنت تسمع أمر من وليتهم شئون الرعية، وكيف أنهم لم يؤتمن عليهم في إدارتها، ولكنك لم تتحرك ساكنًا، واكتفيت بدور المتفرج علي ظلم استفحل في البلاد، لم يجد شهريار كلمة يرد بها علي زوجته، اكتفي بالإنصات لحديث يدرك أنه صحيح، أطلق تنهيدة كبيرة قال بعدها، لماذا لا تقصي علي قصة الشقيق الثالث لتلك الأسرة المنكوبه.

اقتربت شهرزاد من زوجها، ثم دعته للجلوس بجوارها قائلة بطريقتها المعهودة: «اسمع يا مولاه.. قصة ذلك الفتي منصور، والذي لم يحمل من أسمه نصيبًا، بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في احدي المدن، تخرج شاب يدعي منصور له باع في القانون....

●●●

الحكاية الرابعة

لم يكن شروق شمس هذا اليوم كأي شروق، ليس لأنه يوم من أيام الربيع الجميلة، تناغمت فيه كل خلائق الطبيعة لرسم تلك اللوحة الساحرة، علي كورنيش نيل القاهرة، وقفت تلك الأشجار الزاهرة، تتراقص علي أنغام ريح رطبة مغمسة بالندي، فتهللت علي أفرعها الطيور الجواثم، تحوم فيما بينها فراشات بحثًا عن الرحيق، وتسلقت الطيور ثاقبات الخشب الكستناء، ناقرة بمناقيرها ثقوب اللحاء، وحلقت العصافير وطيور السنونو تزين تلك السماء، لقد استنشق من كان هنا ريح السعادة.

أعلي أحد الكباري النيلة العريقة، تلك التي تزينها الأسود الحديدية، تجمع حشد من الناس، رجال ونساء، أطفال وشيوخ، يتزاحمون لإلقاء نظرة علي حافة الجسر، رافعين أيديهم بهواتفهم المحمولة لإلتقاط صورة تذكارية مع هذا الذي يتدلي، شاب صغير، لم يتخط الرابعة والعشرين، قرر الرحيل، وبكامل حلته الرسمية.

«مسقط رأسي من تلك التظاهرة، خبِّئْ مشاعركَ القديمةَ كلها، واكتبْ لمصرَ اليوم كلمات تليق بشعبها، لا صمتَ بعد اليومِ يفرِضُ خزيهُ، فاكتب نقداً لنيل مصر وأهلَها»..لا أعلم لماذا جاءت كلمات شاعرنا هشام الجُخ في مُخيلتي وأنا أري ذلك المشهد

العبثي، فخرجت أبياته بتلك الصورة المُزرية، لتعبر بصدق عن ذاك المشهد الأليم.

قبل قليل، وداخل إحدي مؤسسات القضاء، وقف منصور أمام تلك اللجنة واثقًا، كان قد ودع والديه صباح هذا اليوم ممنيًا نفسه بتحقيق حلم حياته، فتي تخرج من الحقوق متفوقًا، وآن له أن يخطو خطوة طالما سعي إليها، رغم شكوك والده الذي يعمل كناسًا للمدينة، دائمًا ما يذكره، يا بني لن يوافقوا بك، لن يرضوا بقاض يعمل والده عامل نظافة، لا يغرنك تفوقك وحصولك علي المراكز الأولي، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، يا بني مثلنا لا مكان له تحت الشمس، ستعيش إبن كناس المدينة، وستموت ميتة إبن عمال النظافة.

لم يلتفت منصور لحديث أبيه، كان يظن أنه يعيش عصرًا غير عصره، وأن أبن الريس عبد الواحد جناينى الباشا قد أنهي تلك النظرة الدونية لبسطاء المصريين، ولكنه لم يكن يدرك أنه ظن من النوع الأثيم، وأنه ما ثورة قامت في تلك المدينه الجائعة، ارتدي الفتي أبهي ما لديه، حلة بسيطة ولكنها كانت أجمل ما يمتلك، رابطة عنق اعتقد أنها مناسبة، حذاء حرص علي تلميعه بنفسه، ذهب إلي المرآة ينظر إلي هيئته، أغمض عينيه، ثم راح يتخيل نفسه يقف بها في قاعة المحكمة ينتصر للحق والعدل.

«لا أعتقد يا بُني أنك تستحق هذا المنصب».. كلمات كالرصاص انطلقت داخل قاعة المحكمة، كلمات أيقظت الفتي منصور من أحلامه، قالها والده ولم يصدقها، لماذا يرفضونه، لقد تفوق في دراسته علي الجميع، لا ينقصه أي شيء، مصري من أبوين مصريين، حصل علي المركز الأول علي جامعته، فمن يصلح غيره، لم يشعر أن ما يفكر به يخرج من فمه بصوت مرتفع، إلا أن ضحكات ساخرة متقطعة من أعضاء تلك اللجنة جعلته ينتبه، لا تقلق يا بني، هناك الكثير يستحق، لكنهم ليسوا مثلك، بل أعلي شأنًا.

من يري منصور صباح هذا اليوم لا يمكن أن يصدق ما آل إليه الأن، فشتان بين فتي خرج من منزله يحذوة أمل جعله مختالاً فرحًا بنفسه، وبين فتي قتلوا حلمه حتي قبل أن يولد، دون أن ينطق كلمة التفت تاركًا تلك اللجنة الظالمة، خرج من الغرفة منكس الرأس، يبدو عليه الحزن والإنكسار الذي أوصله حد البكاء، حزن أدركه من ينتظر دوره من البُسطاء الحالمين في هذا البلد التعيس، إنكسار جعل البعض ينسحب من تلك المنافسة غير المتكافئة، في حين انتفخت أوداج البعض ممن ظنوا أنهم أسمي وأرقي من علي هذه الارض.

هـام منصـور علـي وجهـه في شـوارع المحروسـة، لا يـدري إلـي أين يتجـه، ولا إلـي أين تقـوده قدمـاه، فقـط لا يرغـب في العـودة إلـي المنـزل، العـودة إلـي ذلـك الوالـد الـذي رفضـوه لبسـاطة مهنتـه، يؤلمـه أن يشـعر ذلـك الأب أنـه سـبب هزيمتـه، رغـم تنبـؤه بمـا سـيحدث هـذا اليـوم، راح الفتـي يلعـن سـنوات عمـره التـي قضاهـا دون فائـدة، راح يلعـن كل لحظـة حلـم فيهـا مـن أجـل هـذا الوطـن، كيـف يعيـش في وطـن رفـض الإعتـراف بإنسـانيته، بوطنيتـه، وطـن يتعامـل معـه كمواطـن مـن الدرجـة الثانيـة، وطـن يصنـف أبنـاءه طبقًـا لدرجاتهـم الإجتماعيـة.

انطلـق صـوت المؤذن معلنًـا موعـد أذان الفجـر، في تلـك اللحظـة وصـل منصـور إلـي كورنيـش النيـل، وقـف يتلفـت يمينًـا ويسـارًا، هـل هـام علـي وجهـه طيلـة هـذا اليـوم، مـن ايـن جـاء، وكيـف سـار في شـوارع المحروسـة كل تلـك السـاعات دون أن يـدري، إنـه لا يذكـر أي شـيء منـذ أن تـرك تلـك اللجنـة المشـئومه، إنـه يخشـي العـودة إلـي المنـزل، يخشـي مواجهـة والديـه، يخشـي مواجهـة نفسـه، أي حيـاة يمكـن أن يعيشـها بعـد اليـوم وهـو يعيـش مواطنًـا مـن الدرجـة الثانيـة، أي انتمـاء يمكـن أن يقدمـه لوطـن يرفـض وجـوده، أو يفخـر بـه.

اسـتند منصـور علـي سـور كوبـري قصـر النيـل متأمـلاً مياهـه السـاكنه، راح يشـكو لـه ضعـف قوتـه، وقلـه حيلتـه، وهوانـه علـي

الناس، كان يشعر باختناق، فقد سد امتلاء قلبه بالحزن حلقه، لم يعد قادرًا علي احتمال رابطة عنقه، فاسرع بفكها بايديٍ مرتعشة، بكي بحرقة وهو ينظر إليها، ليست تلك التي رأها صباح هذا اليوم وأُعجب بها، أمسكها بكلتا يديه، رفعها أمام وجهه ليري ما جعله يندهش، لقد صنع دون أن يقصد من رابطة عنقه حبل مشنقه، تلك هي النهاية إذا، نهاية إنسان أراد الحياة، ولكنهم أجبروه علي اختيار الموت، لم يفكر كثيرًا، كان يخشي التراجع أكثر من خشية الموت نفسه، دون تردد راح يربط طرف رابطة العنق علي سور الجسر، ثم صعد واضعًا الحلقة التي صنعها حول عنقة، نظر إلي السماء باكيًا، قبل أن يترك جسده يتهاوي أعلي نهر النيل، لتنتهي حياته كمواطن من الدرجة الثانية.

●●●

داخل المخدع، توقفت شهرزاد كعادتها أمام فراش مليكها، تقول: وكانت تلك يا مولاي حكاية منصور، ذلك الشاب الذي لم يكن من اسمه أي نصيب، هزموه علي أرضه فلم يعد منصورًا، أجبروه علي قتل نفسه علة يجد في الأخرة حظ يليق به، صمتت شهرزاد برهةٌ، وعندما لم تتلقي جواب، التفتت إلي الملك شهريار، الذي تململ في الفراش ثم قال مهمهماً: وماذا بعد أكملي، أجابته بصوت متردد، حانق، وبعد،، يبدو أنك ستظل نائمًا يا سيدي،

للرعية كل الحق فيما يطالبون به، سنلتقي بعد ألف عام ولم تكن قد تعلمت الدرس بعد، أنه إذا لم يكتشف الإنسان نفسه بنفسه، فحتمًا سيضل السبيل، ..... أطلق الديك صياحه معلناً ميلاد يوم جديد، عندها أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام بعد أن أدركت أنه لم يعد مباح.....

●●●

نوبة أركوني قُوريرا.. مســـرنا دورو

أسّـــى أوينقون دورو.. فاويدُ إركي أونّـــا

رسالة «تاج الدين»

«أسندت الظهر إلي نخلي.. وتأملت الثمر الداني.. ما أبهاه.. ما أروعه.. ما أشهاه.. ومددتُ يدي.. قالت أمي لا يا كبدي.. أوهنتَ علي حالك جَلدي.. لا تفزع في نومك.. ولدي.. وصحوت من النوم حزيناً وتذكرت الحلم الوردي.. وأسفتُ علي أمسي وغدي.. وبكيتُ.. بكيتُ.. أفارقنا أرض الأجداد إلي الأبدِ!»

جلست علي شط البر الشرقي لطيبة، فارضاً علي نفسي عزله، أتأمل ذلك المشهد الخلاب، أملئ رئتي بعبق تاريخ أجدادي الفراعين، فأي فخر يحمله حفيد لأجداده الأولين، فخر ملؤه الإباء والشرفِ، لكنه لم يخفي شجنٌ علي ما آل إليه حاله الأليم، بين الفينة والأخرى أرمي النهر بحجرً، علني أيقظه من سبات نوم عميق، أخرجني من عزلتي ذاك الصوت، أبيات شعر لم أفهم مغزاها، لكنها تسللت إلي فؤادي الحزين.

كل ما يحيط بي لا يمكن أن يخفي أحدً، فقد اخترت عزله سهلية يسير فيها النهر بنعومة منذ آلاف السنين، يمكن لعيني أن تري أي مُقتحمٌ لمجلسي دون استئذان، أستطيع أن أري القادم من أفق يبعد مئات الأمتار، لم يكن هناك موطئ لجبل أو لشجر يمكن أن يخفي عن العين آي شيء، وقفت أتلفت يميناً ويساراً

باحثًا عن الشاعر المجهول، لم أجد شيئًا، فظننت أن مسًا أصاب عقلي، أو أن تلك الأبيات جاءت من أعماق ضميري الشجنِ علي حال أمتي، فعدتُ أتأمل السكون.

التفت إلي النهر أسأله، يا نيلُ هل تخاطبني ألماً، فتلقي إلي الشعرَ يواسيني، أم أن الحجر يؤلمكَ، فترمي آبيات تعاتبني، فجاءني صوت ذاك الشيخ ليُجيبني، «في غفلتنا ضاع تراثُ.. أذهل كل العالم حُقبا.. واضيعتنا.. يا حسرتنا.. كان تراثًا يعدل ذهبا»، أنت ضميري إذًا يا هذا، كمختلٍ فقد عقله أجبتُه هكذا، فأطلقت العنان لضحكاتٍ مرتبكة، وأخذتُ أردد ماذا عساي أن أفعل، فقد زرع الأباء بذرة في الأرض البورِ، وهاأنذا أحصد نبتة الانكسار والخذلانُ، فعاد الصوت يزجرني صائحًا، سل نفسك عن التاريخ والماضي الذي كان صرحاً شامخًا ثم هوي.

تملكني فجأة شعور جارف برغبة الاقتراب من النهر، فقد أدركت أخيرًا أن «حابي» هو شاعري المجهول، فدنوت من الشط ببطء، ترتجف فرائصي، ترتعد أوصالي، لم يعد هناك صوت يعلو فوق صوت دقات القلب، واصلت الاقتراب حتي لامست مياهه، ملِت بجسدي حتي كادت رأسي أن تلامسه، أطرقت أذني فلم تسمع إلا صوت موجاته، حملقت بعيني أشجعه علي مواصله حديثه، لم أجد إلا صمتًا، سكنت برهة أنتظر ولا حياة لمن تنادي، فلا شيء في النهر تغير.

"احذر يا بُني.. فالنهر غدار.. زينة شباب المحروسة راحوا بحضنه".. اختل توازني فجأة وكدت أسقط في مياه النهر، فمن خلف ظهري انطلق صوت ذاك الشاعر صارخاً، صرخة كفيلة بإرعابي، وددتُ أن ألقي نفسي بحضن النهر هربا، تمسكي بالحياة جعلني أبحث عن شيء أتشبث به، بطرف عيني لمحت يداً سوداء تمتد إلي، دون وعي مددتُ يدي لتلامس أناملي أطراف أصابعه، لم أعبأ بفكرة موتي غرقًا، مثلما ارتعدت الأن من ذاك الذي أُلامسه، يدٍ ظننتُ أنها تنبثق من عدم، ولكنها حرمت ذلك الغدار من احتضان جسدي.

ألقيت بجسدي لاهثًا علي الأرضِ، لم تفارق عيني مياه النهر، لم ألتفت لصاحب اليد السوداء، لم يُسعفني فضولي لمعرفة شخصه، رهبة المشهد أنستني تحيته، أو حتي رد جميل صنيعه معي، فما زالت تسيطر علي عقلي هواجسي، فمن صاحب تلك اليد السوداء؟، من أين جاء؟، وكيف لم أراه؟، هل انشقت الأرض به لينقذني؟، أم لفظه العدم في طريقي ليؤانسني؟، لكزه خفيفة علي كتفي الأيمن جعلتني أفيق من تساؤلاتي، توقف كل شيء من حولي، لم يعد النيل يجري، حتي الهواء ما عاد يتحرك، وكأنه مشهداً سينمائياً اضطر مخرجه لعرضه بالصور البطيئة، التفت إلي ذلك الشاعر المجهول، ورويداً رويداً بدت تفاصيله.

وكما بدأ الرعب والخوف فجأة، دبت السكينة إلي نفسي فجأة، فابتسامة طيبة استقبلني صاحب اليد السوداء، عجوز في منتصف العقد السابع من عمره، طويل القامة، ضخم الجثة، أسمر البشرة كأغلب أهل الأقصر، واسع الفم يعلوه شارب أبيض طويل الأطراف، له صدغان منخفضان، وعينان ضيقتان غائرتان حادتان كعيني نسر كاسر، كان يمثل بوجهه أمام المرآة كل معاني الطيبة، فحظي ذاك الوجه نصيبًا من اسم المدينة التي تربي وعاش فيها "طيبة".

ظللت هكذا أتفرس ملامح ذلك الشاعر برهة، لم أنطق ببنت شفة، فقد سكتُ عن الكلام المباح، تناسيتُ كل شيء تقريبا، تناسيتُ ما انتابني من فزع، أبياته التي أثرتني، ظهوره المفاجئ في عزلتي، فقد أثرتني طيبه هذا العجوز الجالس القرفصاء، يمسك عصا يتوكأ عليها، وله فيها مآرب أخري، للمرة الثانية يلكز كتفي قائلاً بصوت حمل طيبة الأرض وما عليها: "مالك يا ولدي ساكت ليه.. روحت علي فين"، وكأن الحياة عادت من جديد، عادت إلي ذاكرتي، فاعتدلت نافضًا رأسي إياها مما علق من غبار صدمة، وقلت بصوت حاولت أن يخرج هادئًا: "لازلت هنا ولكن عقلي هناك مع أبياتك الغامضة".

"هـذه أبياتـي.. كتبتهـا منـذ أكثـر مـن مئـة عـام.. وسـألقن أحفـادي حروفهـا لمئـات الأجيـال".. صدقًـا لا أعلـم مـن أيـن خرجـت تلـك الكلمـات، فرغـم إننـي رأيـت هـذا العجـوز يتحـدث، إلا إننـي أكاد أُقسـم أن هـذا الصـوت لـم يخـرج مـن فـم الرجـل، صوتـاً عميقـاً قادمـاً مـن جـوف الأرض، حـاداً غليظـاً كأنـه يخـرج مـن باطـن كهـف صخـري، وفي نفـس الوقـت شـجياً مغلفـاً بالحـزن يطلـق العنـان للدموع والتنهـدات، تعجبـت ممـا قالـه الرجـل، فكيـف لـه بتلـك الأبيـات منـذ أكثـر مـن مئـة عـام، وهـو عجـوز لـم يتجـاوز السـبعون ربيعـا، اكتبهـا قبـل أن يولـد بثلاثـون عـام.

ابتسـامة الشـاعر الأسـمر الواسـعة أجابـت سـؤالي دون أن يتفـوه بحـرف، جمـال تـاج الديـن، ذاك أسـمه، ولـد في قريـة دهميـت قبـل هجـرة بنـي عشـيرته بنحـو ثلاثـة عشـرة عامـاً، وطيلـة سـنوات عمـره السـتين، اكتسـب صفـات أهـل النوبـة العظـام، فـكان الأطـول قامـة والأكثـر وسـامة، هكـذا هيـرودوت فيهـم قـال، حفـرت قسـوة الصحـراء القاسـية بجسـده صـلادة جعلتـه أشـبه بجنـود الأسـاطير، فأشـارت بيـدي إلـي مـا حولـي قائـلاً، تلـك أرض وهنـاك أرض، فلمـاذا هـذا الحنـين.

"دوارين أوق وسّسـن متِـي لـن".. لـم أفهـم مـا قالـه الشـاعر، فقـد أدركـت أن سـؤالي هـذا أغضبـه، صرامـة وجهـه، حـدة صوتـه،

أنبأني بذلك، فحينما انعقد حاجبي مستفسراً، أطلق ضحكة قصيرة قائلاً، "أنها وصية الأجداد يا بني"، هنا فهمت لماذا أشار إلي رفات أجداده أسفل النهر، فالتفت إلي حابي أعاتبه، أليست كل مصر أوطاني، أجابني بصوت هادر، "داوّرين سيواد"، لم يكن صوت الشاعر، بل صوت حابي، ذلك النهر الذي تلاطمت أمواجه وكأنه بحر غاضب، اتسعت حدقتا عيني رعباً، تنهيدة حارة جعلتني ألتفت إلي الشاعر الأسمر، فإذا به مطأطئ الرأس قائلاً بصوته المنكسر، "ذاك جدي تاج الدين يا بُني.. مات حسرةٌ علي أرضٍ تركها في الهجرة الأولي منذ مئة وعشرة عامٍ مضت".

ذات صباح انتفض "تاج الدين" من نومه فزعاً، لم يكن قد تجاوز العامين ليفهم، اقتحم أبيه مخدعه صارخاً، سنترك النوبة يا صغيري، سيبنوا هناك سداً، قالوا أنه سيروض حابي ويجعله مُطيعاً، لم يدرك الصغير معني الحديث، دمعة حزينة علي وجنتي أبيه أفهمته أنه مُقبل علي شيء أليم، سار ركب أبيه مغادراً داراً ولد بها، وعلي سطح المركب الراحلة، أشار الأب إلي النوبة قائلاً للصغير: "نوبة أركوني قُوريرا.. مسرنا دورو.. أسّى أوينقون دورو.. فاويدُ إركي أونّا".

مازال صغيراً "تاج الدين"، لكنه فهم الرسالة، حفظها عن ظهر قلب من أبية، كان والده يدرك ذلك، لذا أعادها أكثر من

مـرة، حتـي اختفـت النوبـة في الأفـق كلمـا أبتعـد القـارب، اختفـت النوبـة، وظلـت رسـالة الأب تتـردد في قلـب وعقـل "تـاج الديـن" بلغـة أهـل عشـيرته الأولـين، "النوبـة أرضنـا الطيبـة.. تركناهـا عشـان خاطـر مصـر.. عشـان خاطـر أحفادنـا.. ولكننـا سـنعود إليهـا.. سـنعود إليهـا".

شـب "تـاج الديـن" وأصبـح رجـلاً، لـم ينـس رسـالة أبيـه يومـاً، كان الحُلـم يـراوده، أن يحقـق وصيـة أبيـه، أن يعـود إلـي النوبـة، لقـن طفلـه وصيـه الأرض، وقـد أسـماه صالـح علـي اسـم الجـد، ليـرث مـن بعـده نفس الحلـم، ونفـس الرسـالة، "فاويـدُ إركـي أونّـا"، سـنعود إلـي بلادنـا.

مـرت ثلاثـون عامـاً علـي ذاك اليـوم، لـم يتغيـر شـيء، وذات نهـار مُشـرق، جلـس "تـاج الديـن" أمـام شـط حابـي، ينظـر إلـي منزلـه النوبي البسـيط الـذي يحكـي قصـة عشـيرته، قبـاب وزخـارف وزينـة ونقـوش لـكل العصـور، بـين الفينـة والأخـرى ينظـر لأبنـه "صالـح" الـذي تفـرغ للعـب واللهـو بـين البيـوت، يرجـو الأيـام أن تسـير سـريعاً ليشـب رجـلاً ويُحفظـه رسـالة الجـدود، اقتحـم أحلامـه كابـوس مزعـج، فقـد أمـر الوالـي بتعليـة السـد، وغرقـت الشـوارع والبيـوت، وحـان وقـت مغـادرة الديـار، فتحـرك الركـب بنفـس المركـب التـي يبـدو أنهـا لا تشـبع، تُصـر دائمـا علـي حمـل المزيـد، تذكـر "تـاج الديـن" وصيـة أبيـه، فنـادي علـي أبنـه صائحـاً، صالـح حـان وقـت الرسـالة، ثـم أشـار إلـي النوبـة مـردداً:

"نوبة أركوني قُوريرا .. مسرنا دورو .. أسّى أوينقون دورو .. فاويدُ إركي أونّا".

مات الجد ومات "تاج الدين"، وتركا صالح في الأربعين، لم يبتعد عن بلاد النوبة كثيراً عاش وتزوج بالقرب منه، وجاءه "جمال" حفيد الحفيد، ظن أنه لن يعيش مأساة أجداده، ولكنه ظن من البعض الأثيم، في يوم كيوم الجد والأب، رسا علي الشط نفس المركب، ترجو المزيد من الراحلين عن أرض النوبة، وقف صالح علي باب منزله مرتعد الأوصال دامع العين، هل كُتب عليه كما كُتب علي الذين من قبله، أن يعيش في أرض غير أرضه، أن لا ينفذ وصية أبيه وجده، وكأنه مشهد أصر مخرجه أن يعيده، كلاكيت ثالث مرة، فنادي ابنه جمال حان وقت الرسالة، ثم أشار إلي النوبة مردداً: "نوبة أركوني قُوريرا .. مسرنا دورو .. أسّى أوينقون دورو .. فاويدُ إركي أونّا".

"مرت خمسون عاماً يا بني.. بين الحين والحين أجلس علي نفس الشط، ألقي شعري لرفات "تاج الدين" و"صالح" .. أشكو لهم ضعف قوتي، وقلة حيلتي.. لم أنجب ولدا ألقنه الرسالة".. هكذا أعادني الشاعر الأسمر إلي رشدي، كأن سنوات مرت أمام عقلي، بكت عيني وسال الدمع أنهارا، فماذا عساه أن يفعل برسالة أجداده، وماذا سيقول لأجداده حين يلقاهم.

أرخي جمال رأسه علي الصخرة، أسبل جفنيه، وراح يردد بصوت شجن، "نوبة نابِن إركي".. نوبة يا بلاد الذهب، "أُوندين مَس سُودا مِننُ".. كانت أيامك جميلة، "مَشكِر أَسّرِن شايقا سُولوق أمن قارّا".. اشتقت لشاي العصاري بالحليب علي شطك، ""مَشكِر أسّربن بَتّرَ نوقين فاكِّلاَ".. اشتقت للعب الأطفال بين البيوت، "مَشكِر أونَتل قاقجو أشرى قا".. اشتقت للونسة الطيبة علي ضوء القمر، "شوبِن قور ندى قا".. لأفراح زمان، "مَشكِر ديون كبكا- ديدين قاتيجا".. اشتاق لخبز ورائحة القدور، "فاويدُ إركي أونّا".. سنعود إلي بلادنا.

سكت جمال، فتح عينيه للمرة الأخيرة، نظر إلي حابي مودعاً، أخرج أخر نفس من صدره، صعدت روحه تحمل رسالة الأجداد والإباء، لم يخلف ولداً يستأمنه عليها، لكنه كان يعلم أن كل أبناء النوبة يحملون نفس الرسالة، هو قال ذلك قبل أن يموت، "أوقون أسّى أوينقوق أق وسيجور".. وصيتي لأحفادي، "نُوبيقُو أورون كيلن كوركدي ين".. النوبيين رجال الجنوب وحراسة، "فاويدُ إركي أونّا".. سيعودون إلي بلادهم.

●●●

ختامًا

للحقيقة يجب أن أقول، إنني لم أكن لأكتب قصة الأجيال تلك لولا مساعدة الأديب والشاعر النوبي محيى الدين صالح، مستشار التراث النوبي بمركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي بمكتبة الإسكندرية، ولد في مدينة قُسطل عام ١٩٥١، وقد استلهمت قصة "تاج الدين" من قصيدته "قصة الهجرة" التي دونها في ديوانه الخامس "نُودِيتُ مِنْ وادِي النّخِيل"، بل واستعنت ببعض أبياته.

●●●

أنت الذي خلقت في السماء نيلا لكي ينزل عليهم ولهم

النيل مجاشي

"التحيات لك أيها الرب العظيم، رب "الماعتي" العدالة المطلقة.. جئتك سيدي وأضحيت قريباً منك حتى انظر محاسنك.. أنا أعرفك وأعرف الآلهة الاثنين وأربعين إلهًا الذين معك في قاعة "الماعتي".. جئتك كي أري جمالك، ويداي متضرعتان تحملان "الماعت".. يا من عيناه "ماعتي"، "والماعتي" هو اسمه"

داخل قاعة العدالة المطلقة "ماعتي" مثُلت روح "مين- لي"، إنه يوم الحساب، مات ذلك الرجل تاركاً زوجته وأبناءه، واليوم هو في حضرة الآلهة لتبرئة نفسه من كل فعل مشين، يقف بين يدي إله البعث والحساب أوزيريس الجالس علي عرشه، ومن خلفه جلستا زوجته إيزيس والأخت نفتيس تحميانه... أسفل قدميه يجلس "عممعموت" أكل قلوب العاصين والجبارين ينتظر الإشارة.

لم يبدوا علي الإله "أوزيريس" إنه يسمع ابتهالات تلك الروح، فساعة الحساب لم تبدأ بعد، فجثا "مين- لي" علي ركبتيه عاقداً كفتيه أمام وجهه المضطرب، وبعيون ملؤها الأمل، وبقلب ظن إنه توقف عن الخفقان يوم أن مات، وبأطراف مرتعشة، وبأوصال مرتجفة، التفت "مين- لي" إلي الإله "أنوبيس"، فبين يديه قلبه

مازال يقطر دماً، يتجه إلي ميزان العدالة المُطلقة، نظرة قصيرة من "أنوبيس" أتبعها بإشارة من يديه إلي الإله "تحوت" جعلته يضع ريشة "ماعت" علي إحدي كفتي الميزان، وعلي الكفة الأخرى وضع قلبه، فخط "تحوت" بريشته علي بردية الحساب أعمال "مين- لي".

لم يري "مين- لي" ما كتبة الإله "تحوت"، ولكنه أدرك أن ما كتبه ليس في صالح أعماله، كان مشهد الميزان ينبئ عن ذلك، انخفضت كفة قلبه لتُصبح أثقل من ريشة ماعت بكثير، ما يعني أنه عاش حياته في الدنيا جباراً عصياً كاذباً يفعل المنكرات، جحظت عينا "مين- لي" رُعباً، تعالت دقات قلبه تصنع ضجيجاً داخل أعماقه، كاد يسقط مُغشياً عليه، التفت إلي "عممموت" الذي تأهب صارخاً وقد أدرك إنه علي وشك التهام مُذنب أثيم، وتكون تلك هي نهايته إلي أبد الآبدين.

التفت "مين- لي" إلي "أوزيريس" متضرعاً يرجو المغفرة، علي وجنتيه سالت الدماء أنهاراً، تساقط جلد جسده خجلاً، وبصوت لاهث، لاهف، قال، "لم أكن عصياً جباراً.. فأنا طاهر أمين.. وطهارتي مثل طهارة طائر البينو.. في إهناسيا ذلك العظيم.. أنا أنف سيد التنفس العظيم الذي يحفظ حياة البشر.. لم أظلم إنساناً.. لم أُسيء استخدام حيوان.. لم أرتكب حماقة في مكان

الحق.. لم أسع لمعرفة ما ينبغي كتمانه.. لم أنظر لعورة.. لم أزني.. لم أعذب أحد.. لم آتي باسمي قبل اسم الإله.. لم أغضب الرب.. لم أبدد ميراث اليتيم.. لم أترك جائعا.. لم أتسبب في دموع.. لم أقتل.. لم أفعل شيئاً مما نهاه الرب".

"قُل لي ماذا فعلت بأمر النهر".. لم يتحدث "أوزيريس"، ولكنه سمع سؤاله، فأشار بكلتا يديه قائلاً بصوت هامس: "أنا يا سيدي لم ألوث ماء النهر.. لم أمنع ماء الفيضان في موسمه.. لم أبني سداً للمياه الجارية.. لم....."، صوت هادر انطلق داخل أعماقه جعله يصمت، صرخات الكائن "عمعموت" وضربات حافري قدميه الأماميتين، ومشهد الزبد يخرج من بين فكية الشبيه بفكي تمساح نيلي ضخم، جعله يتوقف عن الهمس، كل خليه من خلايا جسده توقفت عن الحياة، إشارة من يد "أوزيريس" إلي السماء جعلته يرفع رأسه، ليري بعينيه ما لم يكن في حُسبانه.

وكأن السماء انشقت لتُكشف عن شاشة هولوجرامية ثلاثية الأبعاد، وما أن رأي "مين- لي" ما تعرضه حتي جحظت عيناه رعباً، فأمام عينيه دليل أعماله، دليل كذبة علي "أوزيريس"، رأي كيف أنه كان يلوث النيل، كيف إنه كان يُلقي بفضلاته في مياهه المُقدسة، كيف إنه لم يهتم بنظافته، كيف أنه كان يحرم جاره منه حتي يروي أرضه أولاً، لم يكن "مين- لي" أميناً علي النيل،

وكان يدرك ذلك، أخفض رأسه إلي "أوزيريس" لم يُخرج صوتاً، فقد سكت اللسان، فألقي "أنوبيس" بقلبه إلي "عمعموت"، فأشار أوزيريس إليه أمراً بالتهامه، فانقض يلتهم قلب "مين- لي" وروحه الصارخة، ليقتص "ماعتي" من روح أهانت النهر العظيم "أتور- عا"، ولم تصن رب المياه الأبدية "نون".

●●●

نهار خارجي- (ساحة منزل مُطل علي النيل ١٥ توت ٢١٨٠ ق.م).. "ما بال "حابي" هذا العام، هل أغضبناه إلي هذا الحد، هل يُعاقبنا رب الأرباب فأمر "نون" بمنعه عنا، لقد اشتاق "أتور- عا" إلية".. وقف "سني - كا- لى" أمام ساحة منزله المُطل علي النيل بين زوجته "رودوبيس"، وبناته الثلاثة، "ألارا" و"أسماغا" و"كاربيتا"، يشكو ما أصاب النيل من جفاف، كان منذ عامين أشهر تجار "تي من هور" وأغناها، واليوم أضحت تجارته مُهددة بعدما حُرمت أراضية مياه النيل.

دنت "رودوبيس" من "سني - كا- لى" مواسية، هون عليك زوجي وأب بناتي، فرب المياه الأبدية لن يهون عليه عطش النهر العظيم، سيأتي "حابي" حاملاً السعادة إلينا، وستعود "تي من هور" درة الإله "حور" إله الشمس المُشرقة، فأطرق "سني- كا- لي" رأسه خجلاً، كان يدرك أن روح النيل "حابي" لن يتأخر عن أرضه

الطيبة، اقترب من شط "أتور- عا" الذي جفت مياهه، جثا علي ركبتيه رافعاً يديه إلي السماء مناجياً، "حعبى، أبو الآلهة... الذي يغذي ويطعم ويجلب المئونة لمصر كلها، الذي يهب كل فرد الحياة في اسم قرينه "الكا"، ويأتي الخير في طريقه والغذاء عن بنانه ويجلب مجيئه البهجة لكل إنسان.. إنك فريد، أنت الذي خلقت نفسك من نفسك، دون أن يعرف أي فرد جوهرك".

أسرعت "ألا- را" و"أسما- غا"، خلف أبيهم يحملن سلال الحلوى والفاكهة، كن يرددن خلف "سني - كا- لى" ترنيمة النهر العظيم، وبين الفينة والأخرى يقذفن النيل بالكعك والفاكهة والتمائم لتثيره، أملين أن يقبل حابي هديتهن، فتزيد قوه الفيضان ويفيض أمواج عاتية معطيا الحياة لأرض "تي من هور"، ومن داخل المنزل خرج الخدم والوصيفات ليشاركوا سيدهم ترانيم النيل، رفعوا أيديهم إلي السماء مرددين، "يا معبود الجميع حين يتسرب إليهم الضعف.. أنت الذي خلقت في السماء نيلا لكي ينزل عليهم ولهم".

"ما يجب أن نتركك هكذا.. علينا أن نذهب إليك".. انتبه "سني- كا- لى" إلي أن ابنته "كار- بي- تا" لا تشاركهم ترنيمة النيل، كعادتها وقفت بعيداً تتطلع إلي الجنوب تخُاطبه، وفي أحيان كثيرة تُهدده، ظن كثيراً أن جفاف النهر العظيم أصاب عقلها اضطرابا، أو أن لعنة رب المياه الأزلية "نون" حلت بها، اقترب منها

واضعا يديه علي كتفيهاً مُهدئاً، "ابنتي الصغيرة.. سيفيض قريباً.. سيأتينا حابي بالسعادة.. لن يبخل علينا "نون" بفيضه"، فأشارت "كار- بي- تا" إلي منبع "أتور- عا" قائلة: "علينا أن نضمن ذلك يا أبي.. علينا أن نضمن ذلك".

"ما هذا الذي تقوله "كار- بي- تا".. ما الذي تقصده بضمان فيضان "حابي".. وكيف يمكن أن نفرض علي "نون" أن يلقي بفيضانه علي النهر العظيم".. كان "سني- كا- لى" يدرك أن ابنته رغم إنها أصغر بناته، إلا أنها اكتسبت من اسمها معناه، الحكمة، لا تنطق إلا ما يتحقق علي أرض الواقع، كثيراً ما استعان بها في إدارة شئون رعيته، ما يعني أن ما تقوله يمكن أن يكون حلاً لمأساة "تي من هور" وسائر أرض الفراعين العظام، تنهيدة عميقة أخرجت "سني- كا- لى" من شروده، نظر إلي أبنته التي اقتربت برأسها من أذنه قائلة بصوت هامس وهي تشير إلي الجنوب: "يجب أن نكون هناك يا أبي.. لا يجب أن نترك "نون" بمفرده.

●●●

ليل خارجي- (قرية هامسين الإريترية ٨ ديسمبر ١٨٧٥)..

"يزيد.. انهض يا بني.. المعركة لم تنتهي بعد.. جنودك يحتاجون إليك.. لا تتركهم في المعركة بمفردهم.. اذهب إليهم.. من أجل النهر العظيم".. داخل كوخ صغير علي أطراف قرية "هامسين"

استلقي يزيد علي صندوق بدائي من الخشب فاقد الوعي، يُحيط صدره بقطعة كبيرة من القماش الملطخ بالدماء، يسيل العرق بغزارة علي جبينه ووجنتيه، إلي جواره فتاه سمراء صغيرة انهمكت في تضميد جراحه، لم تبالي بما يقول، فقط يكفيها إنها علمت أسمه، "يزيد".

لم يكن يزيد مُغشياً عليه كما اعتقدت فاطمة، تلك الفتاة التي تضمد جراحه، إبنه حطاب القرية الذي وجده مُصاباً علي مقربة أميال من قرية "مصوع"، كان يشعر بكل شيء حوله، أدرك منذ الوهلة الأولي إنه نجا من وطيس معركة حامية، دارت منذ أيام قليلة بين الجنود المصريين والأحباش أسفل جبل "آدي هوالا" بالقرب من قرية عدوة، تذكر "يزيد" كيف حاصره الجنود السود في الظلام داخل ذلك الوادي السحيق، كيف أعملوا السيف في رقاب العزل من السلاح، كيف أنقذه سقوطه في كهف سحيق عقب إصابته في صدره، كيف عاني كثيراً ليخرج من الجانب الأخر لساحة المعركة، وقبل أن يسقط مُغشي عليه تذكر ذلك الحطاب الذي عثر عليه وراح يُسعفه.

"أنا يزيد الفولي.. ابن إبراهيم الفولي.. حفيد "سني- كا- لى" شيخ تجار "تي من هور".. أتيت إلي هنا لأقاتل علي حافة العالم.. اجتزت صحاري وجبال وغابات لأكون بجوار رب المياه

الأبدية "نون".. جئت من أجل النهر العظيم "أتور- عا".. لأهب له حابي كل عام.. حتي لا يظمأ إنسان أو حيوان أو طير يسير علي أرض مصر.. أنا يزيد".. راح يزيد يردد تلك الرسالة التي رددها جده منذ آلاف السنين، ظن كثيرا أن قتاله شيئاً مقدساً من أجل النيل، ولكنه ظن من البعض الأثيم.

ذات يوم، في إحدي قري "تي من هور"، كان يزيد يحرث الأرض مع والده، اقتحم عمله شيخ الخفر "عبد البر"، مُعلناً أمر الخديوي إسماعيل إنفاذ حملة لمنابع النيل، فرح كثيراً يزيد، أراد أن يكون أول جنود الحملة الراحلين، لم يكن يدرك عواقب تلك الرحلة، لكنه كان يدرك أن تأمين مجيء "حابي" لملئ النهر العظيم مهمة مقدسة، يجب أن يشارك بها، تلك رسالة جده العظيم، ووصية جدته "كار- بي- تا".. "يجب أن نكون هناك يا أبي.. لا يجب أن نترك "نون" بمفرده".

●●●

نهار خارجي (حقل زراعي دمنهور ٢٠ أغسطس ٢٠٣٠)..
يوم من أيام الصيف الحار، الشمس كعادتها في شهر "مسري" في كبد السماء، تلقي بأشعتها الحارقة علي تلك القرية، فبقي سكانها في بيوتهم تاركين الحقول بلا فؤوس، حتي الأطفال ما عادوا يلعبون في الأزقة أو بين البيوت، في تلك اللحظة، جلس

"عـواد" علـي رأس حقلـه أسـفل شـجرة التـوت، يلتمـس مـن فروعهـا الجافـة بعـض مـن ظـل، بـين الفينـة والأخـرى يلقـي نظـرة علـي أرضـه التـي تشـققت تربتهـا، وجـف مـا بهـا مـن زرع، فهـذا العـام لـم يـأت "حابـي" بالسـعادة، وجـف النهـر العظيـم "أتـور- عـا".

"تصحـرت الأرض وهلـك الحـرث والنسـل وخطـف الخبـز مـن علـى رؤوس الخبازيـن وأكل النـاس القطـط والـكلاب.. بـل أن النـاس أكلـت الميتـة وأخـذوا في أكل الأحيـاء وصنعـت الخطاطيـف والكلاليـب لاصطيـاد المـارة بالشـوارع مـن فـوق الأسـطح".. عـذرا لـم يكـن هـذا جـزء مـن حكاوي شـيخ المؤرخـين المصريـين "أحمـد بـن علـي المقريـزي" والـذي عُـرف باسـم "تقـي الديـن المقريـزي، في رائعتـه "اتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطميـين الخلفـا"، ولكنـه واقـع سـتعيشـه مصـر إذا مـا بخـل علينـا رب الميـاه الأبديـة "نـون" ورفـض يومـاً أن يمنـح "أتـور- عـا" النهـر العظيـم، "حابـي" روح الفيضـان الجالبـة للسـعادة، سـتتحول "تـي مـن هـور" إلـي تلـك القريـة المهجـورة.

"النيـل نجاشـي.. حليـوه أسـمر.. عجـب للونـه دهـب ومرمـر.. أرغولـه في ايـده.. يسـبح لسـيده.. حيـاة بلدنـا.. يـا رب ديمُـه.. قالـت غرامـي في فلوكـة.. وسـاعة نزهـة ع الميـه.. لمحـت ع البعـد حمامـة.. رايحـة علـى الميـه وجايـه.. ووقفـت أنـادى الفلايكـى.. تعالـى مـن فضلـك خدنـا.. رد الفلايكـى بصـوت ملايكـى.. قـال مرحبـا بكـم

مرحبتين".. هل تذكرون تلك الأغنية التراثية، كتب كلماتها أمير الشعراء أحمد بك شوقي منذ أكثر من ٨٥ عام مضت، وقام بتلحينها وغنائها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، حينما كان للفن معني ورسالة تُكتب من خلاله تاريخ أمة، اليوم، ونحن نعيش مرحلة فن المهرجانات، كيف يمكن كتابة تلك القصيدة، وبالشكل الذي يلائم المرحلة، النيل مجاشي.. والأرض العطاشى.. تشتاق لمجئ حابي.. النيل مجاشي.

●●●

ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم

مولانا الإمام

ممر طويل مُظلم، وضوء خافت يُصارع لاختراق سواده الحالك، صمت قاتل مُطبق، ودقات بعيدة تجاهد لاقتحام هذا الجمود، رؤوس من خلف أبواب الزنازين مشرئبة، لا تري منها إلا العيون، لا تسمع لهم صوتاً، فقط في الظلام يحملقون، في تلك الغرفة البعيدة جلس ذلك الأشعث، يرتدي زى إعدامه الأحمر، جالس القرفصاء دافنا رأسه بين ركبتين أحاطت بهما ذراعية، ينصت إلي تلك الدقات ساخرا، هلموا فأنا أنتظر لقاء مولانا وانتم لا تعلمون.

"حذيفة القُرشي".. هكذا عُرف بين اقرنائه، أسمه في البطاقة فولان الفولاني، إنسان بائس، عاش حياته مُنقاد لأفكار وجد فيها ضالته، مارس معها لأول مرة ما كان يعتقدُ إنها سطوه القوة، رغم صغر سنه الذي لم يتجاوز الثلاثون ربيعا، يظن من يراه أنه كهل عجوز، أخفي شاربه ولحيته معالم وجهه الشاحب، حفر القهر تجاويف عينيه الغائرتين، خط الفقر شروخ دامية حول فمه الواسع، انتحي ركناً أشد ظُلمة، علة يختبئ من عدو مجهول، يسترق السمع لخطوات أقدام منتظمة، يعلو صوتها فتزداد اقترابا، انتفض فجأة فزعاً فقد توقفت تلك الأقدام علي بابه.

عاد الصمت يفرض سيطرته من جديد، توارت عيون الرؤوس المشرئبة خلف أبواب الزنازين، ملئوا صدورهم هواءً، كانوا قد حرموا رئاتهم ظناً أن يومهم قريب، تهاوت أجسادهم أرضاً، فأصحاب الأقدام عنهم وقفت بعيد، وداخل زنزانة "القُرشي" رفع "حذيفة" رأساً يعلم أنها ستتدلى بعد قليل، رسم علي وجهة ابتسامة غامضة مردداً، هلموا إن شوقي للإمام يزيد، هوي الباب علي مصراعيه مُلبياً، هيا للقاؤه حظ سعيد، فانقضوا عليه يحملونه فأظهر مرحاً قائلاً هل من مزيد.

كاد لا يخطو "القُرشي" خطوة واحدة علي قدميه، راح الجنود يجرونه جراً نحو نهاية الممر، يسبقهم ضابط يقودهم إلي تلك الغرفة، بين الفينة والأخرى يلقي "القُرشي" نظرة علي حذائه، ود لو عاد به إلي زنزانته، تعجب كيف لا يجرؤ علي السير منتصباً، فلا جُرم ارتكب ولا هو بإرهابي، من خلف النوافذ أطلت رؤوس السجناء مهللة، هذا فتي يُزف إلي عُرسه، فرماهم بعين ساخرة، خسئتم ورب الكعبة ستندمون.

توقف ركب "القُرشي" أمام غرفة الإعدام صامتاً، فرفع "حذيفة" رأسه إلي الجميع باسماً، لمح في الغرفة إناسٌ يصطفون لاستقباله، ألقي إليهم تحية كأنه زعيماً، هاله أن رأي حبلاً متدلياً، فجحظت عينيه التفت حلقته حول جيده اتساعاً، تذكر الإمام

ولقاؤه فتمتم مستغفراً عذرا سيدي، لم أجد في الدنيا متاعاً، راح عشماوي يوثق وثاقه، وتلي عليه شيخهم قرآناً، وراح كبيرهم يتلوا حُكمه، فردد لبيك سيدي، إني أتٌ، أجابه جلاده بضربة من يده، فهوي جسده مودعاً روحه، وقبل أن يصعد إلي السماء ألقي عليهم نظر ساخرة، سأترككم للضلال تنعمون فإني راحل للإمام.

●●●

انطلقت روح "القُرشي" إلي السماء مرحاً، فقد حان وقت اللقاء، غادرت الأرض البائسة لتنعم وسط الأنهار والجنان، ترجو أن يسعد بها الإمام، ويكافئها بسبعون ألف جارية، لاح في السماء باباً فرفرف بجناحيه طرباً ها قد حان وقت النعيم، فسعي إليه صائحا لبيك إمامي وعدت فأوفيت، اقترب "القُرشي" من الباب الذي بدت معالمه في كبد السماء، وعلي بابها يقف الملاك الحارث يشير إليه ملوحاً، فانطلق مسرعاً يمني النفس بالحظ السعيد.

رويداً رويداً يقترب "القُرشي" من باب السماء، شعوراً بارتفاع درجات الحرارة انتابه، إحساسٌ باختناق رئتيه اجتاح كيانه، تعجب كونه روحاً تحس بتلك التأثيرات، فجأة تسلل القلق إلي نفسه، اضطرب قلبه رعباً، جحظت عيناه هلعاً، فما يراه ليس ما وعد به الإمام، لم تكن الجنة ولكنها أشبه بالجحيم، ومن يقف علي بابها شيطان رجيم، يداه الممدودتان، عيناه المشتعلتان، أنياب فكه

الهائلة، أنبأته بذلك، أما خلف الباب فأمواج من النيران المشتعلة، فالتفت محاولاً الفرار من شيطان يطلق ضحكاته، ومن يد نارية عملاقة تنطلق خلفه، انقضت عليه لتنتزعه انتزاعا وتلقي به في غياهب الجحيم المُحرقة.

داخل الجحيم وجد "القُرشي" نفسه يندفع كالبرق صوب بقعة هي الأشد اشتعالا، جحيم لا يمكن وصفه، نار سوداء مظلمة لا ينطفئ لهيبها ولا جمرها، حرها شديد، قعرها بعيد، حليها حديد، شرابها الحميم والصديد، ثيابها مقطعات النيران، ولها سبعه من الأبواب، كل باب أشد حرا من الذي يليه، هنا وهناك أجساد الظالمين مشتعلة، ونسوة ورجال سلسلهم زبانية جهنم مع شياطينهم، لم يبالي "القُرشي" بهم، فما يعانيه من عذاب لا يُطاق، فقد ذاب لحم جسده وعظامه ألف مرة في الثانية الواحدة، كانت في كل مرة كالدهر من شدة الألم.

كأنك يا هذا ارتكبت فعل أثيم.. فجاءوا بك إلي أحر مواقع الجحيم" .. خُيل لـ"القُرشي" أن أحدهم يتحدث إليه، انتبه إلي أنه يجلس علي مقعد قُد من نار داخل غرفة واسعة، إلي جواره عدد من المقاعد لا يُعد ولا يُحصي، يجلس عليها رجال ونساء، لم يتبين وجوههم، فقط هياكل عظمية مشتعلة، تارة سوداء، وتارة حمراء، بين الفينة والأخرى تكتسي العظام لحم، وتعود إليهم هيئتهم

البشرية، فأشار إليه أحدهم قائلاً، ماذا فعلت، فأجابه بصوت باكٍ، لم أفعل سوي ما أمرني به الإمام، فأطلق صاحب الصوت ضحكة ملتاعة، أوضحك عليك ذاك الإمام، مشيت خلفه مُنقاداً ولم تتعلم من سير الأولين، من جاء بي يا فتي إماماً كالذي جاء بك إلي الجحيم.

أشجع الأصمعي".. ذاك أسمي يا "قُرشي"، نعتوني بـ"الأصمعي" لأن سيفي كان بتاراً للرقاب، باسم الإمام سلبت أجساد العباد رؤوسهم، باسم الإله جعلته يقودني إلي هنا، عشت سنيناً أنتمي لجماعة الحشاشين، ناصبت الأيوبي صلاح الدين عداءاً لم أكنه للصليبيين، لم أري خطراً علي الدولة الإسلامية من المسلمين أنفسهم، فعملت سيفي في رقابهم وتركت المغول ينعمون، ضحكوا علي بجنتهم المزعومة بحور العيون، وها أنا اليوم أتجرع كأس ما فعلته ظناً إنه باسم الرسول.

●●●

"سيدي المحقق العام أحضرنا المذنبون".. رفع المُحقق "توماس دي توركيمادا" الجالس علي عرشه رأسه إلي مساعده "برنارد كازاس"، لم يتفوه بكلمة واحدة، فقط أشار إليه بالانتظار، التفت إلي أوراقه وملفاته وراح يخط بيده القرار، وقف "كازاس" ملتزماً الصمت، فقد كان رغم قرابته يخشاه، يعلم أن ضرب عنقه

عقاب مخالفة أمره، أو في غرف التعذيب سيُلقي به مع المُذنبين والهراطقة.

وقف "كازاس" يتفرس ملامح "توركيمادا" دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ضخم الجثة أبيض البشرة، عريض المنكبين قوي الشكيمة، رغم تخطيه الستون، صنع الشعر من رأسه الأقرع طوقاً كأنه تاج المُلك، وجنتان منتفختان، وعينان ضيقتان كعيني صقر، وأنف طويل معقوف، وجبهة عريضة تنبئ عن قسوة صاحبها، يرتدي زى الرهبان الأسود، أحاط عنقه صليب ذهبي.

تنحنح "كازاس" فقد مل الإنتظار، نحي "توركيمادا" أوراقه جانباً، الأن محاكمة الأشرار، التقط معطفه وعصاته وكتابه المقدس، وأشار لمساعده ليقوده إلي قبو الكنيس، وفي الأسفل توجه إلي منصة القضاة، علي يمينه ويساره جلسا مساعديه يتلون عليه أسماء المُذنبين، في حين انشغل جنوده في إخراجهم من الزنازين، شبه عراه مُكبلين، لم يفرقوا بين الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، اصطفوا جميعاً لينصتوا إلي حكم القاضي فيما أجرموه.

"باسم راعيا الصليب إيزابيلا وفردناند.. أحكم عليكم أنا الراهب توركيمادا حامل سيف الرب.. بحرق وذبح الهراطقة من الرجال، أما النساء فستُنزع أثدائهم ويُلقي بهم داخل تابوت

العـذراء، والعجائـز سيجلسـون علـي الكرسـي الخـازوق، والأطفـال خذوهـم لعجلـة كاثريـن، اطحنـوا عظامهـم والقوهـا للطيـور.. يـا جنـود الـرب وحمـاة الصليـب.. لا جـدال ولا نقـاش.. نفـذوا حكـم الـرب وكفـي.. اغرسـوا في أحشـاء الرجل ودفعوه بقـدر مـا يمكـن أن يخـرق"

وقـف "كازاس" خلـف سـيده يـردد مـا يقـول، نفـذوا إرادة الـرب، طهـروا أرواحهـم بالدمـاء، لا تأخذنكم بهـم شـفقة، أقتلوا باسـم الإله، كالذئـاب الضاريـة انقـض الجنـود علـي السـجناء البؤسـاء، انتزعـت مخالبهـم الأطفـال مـن أحضـان أمهاتهـم غيـر عابئـين بصراخهـم، سـاقوا الرجـال إلـي المحـارق وألهبـوا بالسـياط ظهورهـم، نزعـوا ثيـاب النسـاء فلاحـت لمقالعهـم أثدائهـم، بـين صـراخ وعويـل تناثـرت الدمـاء، مـات البعـض صدمـة، وسـقط الآخـرون مُغشـياً عليـه، وعلـي المنصـة اسـترخي "توركيمـادا" ومسـاعديه وكأنهـم يسـتمتعون بموسـيقي هاينريـش شـوتز الجنائـزي.

"عشـرون عامـاً يـا "قُرشـي" عشـتها خلـف الإمـام "توركيمـادا" تبعتـه كالأعمـى والأصـم.. وهـا أنـا أفـوز بمـا وعـده لـي".. انشـقت السـماء السـوداء فجـأة عـن سـيف نـاري ضخـم، هـوي علـي رأس "برنـارد كازاس" ليشـقه نصفـين مـن قمـة رأسـه إلـي مـا بـين سـاقيه، صـراخ "كازاس" الهـادرة أيقظـت "حذيفـة" مـن شـروده، أعـادت إليـه صوابـه، ألهـذا المسـيحي إمامـاً يطالبـه بالذبـح باسـم الـرب، "يـا

عزيـزي لـكل منـا إمـام يدفعـه نحـو الجحيـم دفـع"، التفـت "القُرشـي" إلـي الصـوت فهالـه أن رأي ذلـك الكهـل.

●●●

في تلك القرية الفلسطينية البعيدة، هـرول الصغيـر خلف كرتـه مرحاً قبل أن تختبئ بين أغصان الزيتون، انطلق متحمسـاً غير عابئ بصخـور التـلال، لـم يبالـي بالثلـوج التـي ابتلعـت أقدامـه الصغيـرة، أراد أن يلتقـط كرتـه ليلحـق بأهـل قريتـه، فاليـوم ليلـة الميـلاد، تهللـت أسـاريره فرحـا فقـد وجـد كرتـه أسـفل الغصـون، فأسـرع يلتقطهـا بيديـه الصغيرتـين، طلقـات رصـاص وصـراخ نسـاء أفزعتـه، أسـرع إلـي التبـة ليـري أبشـع مـا يمكـن لطفـل أن تـراه عينـاه.. ميـلاد نكبـة أمـة العـرب.

بعيـون باكيـة راقـب الطفـل قتلـة عصابتـي "شـتيرن" و"إرجـون"، تـواري بجسـده الضئيـل خلـف الصخـور كاتمـاً أنفاسـه، فـكان بإمكانـه أن يـري ويسـمع بوضـوح مـا يحـدث لأهـل قريتـه، "ادفنـوا الجثـث لا أريـد جرحـي لا أريـد شـاهداً واحـداً علـي قيـد الحيـاة"، هكـذا سـمع "الأعـور" يصـرخ في رجالـه، انطلقـت أيديهـم تقتـل الجميـع بـلا توقـف، بـلا تمييـز، الشـيوخ والشـباب والنسـاء، وحتـي الأطفـال حطمـوا رؤوسـهم بالهـراوات، اغتصبـوا الأمهـات، أخرجـوا أحشـائهن مـن بطونهـن.

أربعة ساعات قضاها الصغير بين أغصان الزيتون، لم ينطق بشيء حتي لا يسمعون، أصم صوت المذبحة أذنيه، فأضحي لا يسمع سوي صوت السكون، حتي هدأت القرية وشاهد الأعور ورجالة يرحلون، لم يجرؤ علي ترك مكمنه، فقد خشي أن يروه، لم يبقي من القرية سوي نيران هنا وهناك، ورائحة شواء تزكم الأنوف، لم يكن ذلك الشواء المعتاد لليلة عيد ميلاد عام جديد، ولكنه شواء بشري.

تشجع الطفل وقرر أخيراً أن ينزل إلي القرية ليطمئن علي أمه وأبيه وأخيه الرضيع، بأقدام مرتعدة، وقلب مرتجف سمع دقاته، تقدم من القرية، رويداً، رويداً، كانت تقترب، وصورة المجزرة تتسع، ما هذا الذي يراه، لقد أطلقوا النار علي طفل يرضع من صدر أمه فاخترقت الرصاصة رأسه وصدر أمه فقتلتهما والطفل يلثم الثدي، وبقايا الحليب تسيل على جانبي فمه، لقد جردوا النساء من ملابسهن، هشموا رؤوس جميع الأطفال، حتي رأس أخيه رآه يتدلى علي عتبات منزله.

"أنت هناك".. انتفض الصغير فزعاً، فأمامه أحد رجال الأعور، يصوب إليه سلاحاً، لم يتحرك من مكانه، لم تزرف عيناه الدمع، ترك العنان لأوصاله لترتعد، أطرافه لترتجف، شفتاه لترتعش، اقترب منه الرجل قائلاً بصوت وحش يستعد لافتراس

ضحيته وهو يشير بمسدسه، أتخشى هذا يا صغيري، اطمئن لم تعد به قيمه، ليشهد إني أنفذ وصية الإله، "إسحاق بن عاموس" ينحر الصغير كما أوصي الإمام.

"كما سمعت يا "قُرشي" فنحن أيضاً نتبع الإمام".. زلزلت أرض جهنم من تحت أقدامهم زلزالها، وأخرجت أثقال الجحيم من جوفها، انقضت علي "بن عاموس"، فانتزعت عظامه من جوفه انتزاعاً، انتفض "القُرشي" صارخاً، لم نتبع سوي شيطاناً، فأتاه صوتاً هادراً، ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، فجحظت عيناه رعباً، لقد وجد نفسه في حضره شيطانه.

●●●

يا رب خلص "هوشعنا" أمين

سأخبر اللّه بكل شيء

«سـأخبر اللّه بـكل شـيء .. سـأخبر اللّه بـكل شـيء».. قبـل أن يُطلـق الطفـل السـوري شـهقة المـوت بلحظـات خرجـت مـن فيـه تلـك الكلمـات المؤلمـة، طفـل لـن يذكـر التاريـخ أسـمه، ولكنـه سُـيخلد عبارتـه تلـك، طفـل قتـل ببراءتـه المقتولـة إنسـانيتنا المفقـودة، قالهـا والدمـاء تسـيل أنهـاراً علـي جبينـه ووجنتيـه، دمـاء مـن كثرتهـا لا يمكـن أن تميـز لـون دمـع العـين القانـي.

علـي فـراش المـوت، وبينمـا كان الأطبـاء يسـعفونه، لا يدركـون مـن الأمـر شـيئاً، فاجئهـم ذاك الطفـل بأربعـة كلمـات، عاشـوا طويـلاً يسـمعونها مـن أطفـال عوقبـوا علـي فعـل خاطـئ، يختبـئ الفتـي أسـفل فراشـه أو خلـف الكومودينـو الصغيـر، ثـم يطلـق صياحـه الشـقي، ممزوجـاً ببـراءة جزلـة «عليـك اللّه لا تقتـرب منـي.. سـأخبره بـكل شـيء.. سـأخبر اللّه بـكل شـيء»، ضحـكات متقطعـة جعلت الأب والأم يـدركان أن صغيرهـم يلهـو، ومـا هـي إلا لحظـات حتـي يأتـي الجـد حامـلا معـه الأمـان، ليرتمـي ذاك الصغيـر في حضـن يمتلـئ بـكل مـا يريـد أنـه يخبـره للإلـه.

اليوم ما عاد هناك أب، ما عاد هناك أم، سبقهم الجد برصاص الغدر، لحق بهم الأبناء بسيف الفكر، وها هو الحفيد باكياً يستنجد بالرب، سيقف بين يديه، سيخبره بكل شيء، سيخبره بكل أدب، يا أللّه خلقتني إنساناً، أنشأتني بريئاً، جعلتني بين إناس انتُزعت الإنسانية من قلوبهم، حرموني روحاً نفختها في جسدي، واليوم الروح عادت إليك، تشكوا ضعف قوتها، وقله حيلتها، وهوانها علي الناس، روحاً لا تعلم بأي ذنب قُتلت، لن يكن هناك ألم، لن تسيل علي وجنتيه الدماء أنهارا، لن تدمع عينه ماءا.

أعلي فراش الموت ألقت روح الصغير نظرة الوداع علي بقايا جسد، حلمت كثيرا آلا تتركه، تعلم إنها إلي الجنة ذاهبة، لكنها كأي روح تمنت أن لا تفارقه، ليس بتلك الصورة علي الأقل، لم تنس أن تلق نظرة علي الباكين حولها، رجال ونساء لم يكفوا عن البكاء لحظة، لم يرتكبوا إثم ولم يقصرا في إنقاذ روحه الشاردة، وما خلف غرفة الموت، وفي طريقه للسماء صاعداً، عرج علي منزل مولده، لم يجد حديقته التي روي شجيراتها بيده، لم يجد فراشه الذي أسفله طالما اختبأ، سمع صوته يردد ضاحكاً «عليك اللّه يا أبي لا تقترب مني.. سأخبره بكل شيء.. سأخبر اللّه بكل شيء»، فتذكر أخر كلماته قبل شهقة الموت قائلاً: «أستودع بلادي

في حفظ من عاش من أبناءها.. أما أنا فموعدي مع الله في السماء أخبره بكل من جني في حقها».

●●●

(نهار خارجي – مصر المحروسة – صباح ٩ إبريل ٢٠١٧)..

استيقظت هذا اليوم مبكراً، انطلقت من قريتي المجاورة لقاهرة المعز، يلفني حشد من الصغار الفرحين، صنعوا بملابسهم كرنفالاً، زينت هاماتهم تيجان سعف النخيل، فاليوم عيدنا، مسيحيين ومسلمين، يوم أن دخل عيسي بن مريم أورشليم، راكبًا حماره باستقبال أهلها كالفاتحين، رافعين بأيديهم غصون السعف الأخضر، مرددين يا رب خلص «هوشعنا» أمين.

في تلك اللحظة، وفي مدينة أخري، آبي الشيطان أن يفرح المؤمنين، مع الإمام عقد مجلساً، للشر ناصح أمين، وهناك اتخذ قراراً علة أن يكون من الفاتحين، لم يرض بسوار سعفهم الأخضر، فأبدله بحزام الفتح المُبين، علي باب كنيسهم وقف، لم يبال بصلاة العابدين، أطلق جحيم حقده مدمراً، وأزاح بأشلائه حُلم البلد الأمين، لحظة عشناها عيدٌ بعد عيد، ولم نكن بعد قد نسينا يوم القديسين.

مـن قـال أن الشـر لـم يهـزم فينـا الأمـل، مـن يزعـم أن دماؤنـا المستباحة لـم تعـد تزكـم الأنـوف، تلـك الأشـلاء هنـاك قتلـت داخلنا كل معانـي الفـرح، لـم تعـد لقلوبنـا القـدرة علـي البـكاء، لـم يعـد لصغارنـا القـدرة علـي المـرح، حتـي نسـاؤنا مـا عـدن يشـعرن بالأمـان، عجـز رجالهـم عـن درء الأذى عنهـن، فتناثـرت أجزائهـم علـي الجـدران، لـم يعـد هنـاك فـرق بـين هنـا وهنـاك، أصـاب القاتـل بفعلتـه هدفـاً، أبـدل كرنفـال المُعيديـن مأتمـاً، لا تسـمع فيهـا تهنئـة، فقـط يـردد بعضهـم هامسـاً، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين.

●●●

(نهار داخلي – إحـدي عربـات المتـرو – ظهـر ٩ إبريـل ٢٠١٧)..
مـن ينظـر إلـي وجـوه النـاس في شـوارع المحروسـة ظهـر اليـوم، لـن يصـدق أنهـا نفـس الوشـوش التـي قابلتهـا صبـاح نفـس اليـوم، حـل الحـزن محـل الفـرح، حلـت الكآبـة محـل التفـاؤل، انطفـئ نـور العيـون الضاحكـة، اصفـرت الوجـوه، اختلجـت النفـوس، مـادت الأرض بالنـاس، فسـقط بعضهـم جالسـاً كالموتـى لا يتحركـون، خنقتهـم العبـرات، عقـدت الدهشـة ألسـنتهم، فسـالت دموعهـم غزيـرة تعبـر عمـا في نفوسـهم مـن لوعـة وحسـرة.

أعتـرف أنـه لـم تكـن لـدي رغبـة للحـزن ذلـك اليـوم، صحـوت مبكـراً بحثـاً عـن حلمـي، لكننـي أدركـت أن مـا حلمـت بـه لا يسـعدني مـع تلـك الوجـوه المكفهـرة، وكأنهـا عـدوي انتقلـت إلـي كيانـي، أصابتنـي

غصة جف لها حلقي، رغم رفضي استخدام المترو في تنقلاتي، فدائما ما يُشعر رئتي بالاختناق، عزمت اليوم الفرار إليه، ظننت أنني سأبتعد لو لبعض حين عن تلك الوشوش الحزينة، ولكنه كعادتي ظن من النوع الأثيم.

يا لهول ذلك المشهد الرهيب، مشهد يفتت أشد الصخور صلابة، تنفطر لرؤيته الأكباد، تدمع من أجله العيون، لم يكن تحت الأرض يختلف كثيرا عما شاهدته علي سطحه، داخل عربة المترو لم يكن هناك الكثير، فاليوم أحد السعف، الجميع إما في الكنائس، وإما في الحدائق والحقول القريبة، وكأن علي رؤوس من بقي منهم الطير، خيم علي العربة صمتاً مهيباً، نحتت الصدمة علي وجوههم تقاسيم الذهول من هول الفاجعة.

أغلق القطار أبوابه، تحرك مغادرا تلك المحطة الكئيبة، بحثت بعيني عن مكان شاغر، كان هناك الكثير، نظرة صغيرة جعلتني أدرك أن الوقوف بعيداً أهون ألف مرة من الجلوس بجوار كائن حزين، بطرف عيني لمحتها، فتاة صغيرة، تجاوزت السادسة بقليل، خمرية البشرة، عسلية العين، يزين شعر رأسها الأسود تاج المُلك الأخضر، صُنع بمهارة من سعف النخيل، كعروس صغير ترتدي فستاناً وردي قصير، وحذاء من القماش من نفس اللون الأثير، بابتسامة هادئة أشارت إلي، أملة أن أجلس بجوارها.

أسـرة مصريـة بسـيطة، جـاءت مـن إحـدي قـري محافظـة القليوبيـة، تمنـي النفـس بنزهـة تختـم بـه مشـقة الصـوم الكبيـر، أب وأم وثلاثـة بنـات، أصغرهـم تلـك التـي دعتنـي للجلـوس بجوارهـا، لـم أعلـم أسـمها، فرغـم ملاطفتـي لهـا لـم تنبـس ببنـت شـفه، فقـط ابتسـامات خاطفـة، ثـم يعـود الشـرود إلـي وجههـا الصغيـر، لقـد أفسـد القاتـل رحلتهـم، فـكان القـرار بالعـودة إلـي الديـار، هـكذا انتهـي العيـد رغـم معارضـة الصغـار، لـم يكـن هنـاك صـوت يعلـو فـوق صـوت الصمـت داخـل عربـة ذلـك القطـار.

«لـولا صـوت القطـار لظننـت أننـا انتقلنـا إلـي العـدم».. هكـذا قلـت لنفسـي، فالجميـع يخشـى الحديـث، الجميـع لا يفعـل أي شـيء، فقـط النظـر إلـي الأرض، بعضهـم وضـع وجنتيـه بيـن راحتيـه، والبعـض الأخـر وضـع همـه في مطالعـة صحيفـة، تحـرك القطـار محطـة وراء محطـة، يصعـد مـن يصعـد وينـزل مـن ينـزل، في أخـر المقعـد انشـغلت أم الفتـاة بمتابعـة الأخبـار علـي هاتفهـا الجـوال، بـين الفينـة والأخـرى تدعـو زوجهـا ليـري مـا تشـاهده، فيربـت علـي كتفيهـا مواسـياً، الـرب يرحمهـم أجمعـين، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين.

راح الأب يـردد مواسـاته، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين، تـاركاً زوجتـه ترسـل الدمـع في صمـت علـى وجنتيهـا، تظهـر خلفهـا نظـرة حزينـة منكسـرة، بكـت كثيـرا حتـي تورمـت عيناهـا حزنـا، حتـى

أوشكت على الهلاك لشدة ضعفها، في حين أحاط زوجها ابنتيه بذراعيه، أراد أن يشعرا بالطمأنينة والأمان، حاولت أن أهون عليه قائلاً، لا تحزن سيدي، الإرهاب لا دين له، القاتل لم يفرق بين مسلم ومسيحي، فاجأتني الصغيرة بصوتها الذي أسمعه للمرة الأولي، «معلش يا عمو.. محدش بيموت غيرنا».

هل تذكرون عبارة الطفل السوري ذي الأربعة كلمات، اليوم أضحت ثلاثة كلمات، «محدش بيموت غيرنا»، نفس البراءة، نفس التلقائية، اجتمعتا في هذين الطفلين، الفرق بينهما أكثر من ستمائة كيلو متر بقليل، ولكنهما لخصا بعفويتهما واقعنا الأليم، ألجمتني عبارة الطفلة، لم أعد قادرا علي الحديث، تسمرت في مكاني لا أقوى على الحركة، وحينما حاولت النهوض لم استطع، أصبحت ساقاي غير قادرتين على حملي، استبد بي اليأس والكآبة والحزن من جديد، عدت إلى المنزل منكسراً حزيناً، أجر خطى الخيبة، وعيون أترابي ترمقني في شفقة، وقد تملكني حزن شديد، أمست حياتي خواء لا بهجة فيها.

●●●

عصافير بلا أجنحة لجنة أشبه بالجحيم

مقابر الموتى الأحياء

«هائمون.. ذائغون.. شاردون.. هكذا يبدون.. كالموتى الأحياء».. لم أقصد تلك الخرافة التي برعت في تقديمها كاميرات مدينة هوليوود السينمائية، ولكنها الحقيقة المفزعة التي خلفها ذلك الشيء في أعماقنا، تمكن أخيرا من احتلال أجسادنا، لم يعد لخلايانا القدرة علي الانصياع لأوامر عقولنا، فراحت تتخبط هنا وهناك كالتائهة، اصطدمت بجدار صلب، رفض أن يفسح لها الطريق، كطفل صغير سقط علي الأرض يبكي، ومن خلفه اندفع أطفال المدينة يسقطون فوق جسده، راح يعاقب الجدار بإحداث فوضي هنا وهناك، وعندما جاء الطبيب أخبرنا أن النار تقضي علي الفوضى، فعكف علي إشعال ما أحدثه الطفل، يوما بعد يوم، ماتت الروح وبقي الجسد واضحي شبحا، يسير في شوارعنا كالموتى الأحياء.

●●●

«هدير».. فتاه كأي فتاه علي سطح هذا الكوكب، ولكنها ليست كمثل أي فتاه أخري تعيش بيننا، للوهلة الأولي تظن أنها عجوز طاعن في السن، وما أن تقترب منها تكتشف أنه ظن من

النـوع الأثيـم، فتـاة لـم تتعـدي العشـرين مـن عمرهـا، رغـم ذلـك تظنهـا في السـبعين، وجـه لـم يعـد سـاطعاً، عينـان غائرتـان ذابلتـان، خـدان مسـطحان متهـدلان، وشـفاه جافـة حُرمـت البسـمة، عجـزت قدماهـا عـن حمـل جسـدها الهزيـل، كشـجرة في يـوم عاصف ارتعشـت سـاقيها، كجلمـود صخـر خـر جسـدها الضئيـل ارضًـا، ليُسـرع المـارة بحمـل تلـك التـي كانـت يومًـا شـمعة انطفـئ بريقهـا.

صبـاح كئيـب، دائمـا مـا تقـول هـذا، فـكل شـروق شـمس هـو يـوم حزيـن، كـم حلمـت أن تبيـت ليلـة بـلا صبـاح، لكـن الديـك دائمـا مـا يعانـدهـا ويُطلـق الصيـاح، لتبـدأ رحلتهـا كل أربعـاء مـع الألـم، تسـتقل قطـار الشـرق إلـي القاهـرة، إلـي مبنـي اعتـادت أن تصـرخ فيـه بـلا صـوت، أن تبكـي بـلا دمـوع، تشـاطر قرنائهـا حيـاة الموتـى، تعانـد ذاك الطفـل في أعماقهـا، تـارة تنجـح مـع صغيرهـا، وتـارة يكسـرها بيديـه الضئيلتـين.

طابـور طويـل لا ينتهـي، تقـف هديـر انتظـارًا لجلسـة الكيمـاوي، لا تـدري أهـو عـلاج، أم قاتـل أخـر ينهشـها، فقـد أضـاع هـذا الشـيء هويتهـا، أخفـي معالـم أنوثتهـا، لـم تعـد تلـك الفتـاة التـي كانـت منـذ سـنوات، حتـي صـورة البطاقـة المشـوهة أضحـت أكثـر منهـا جمـالاً، صـارت تخبـئ كل المرايـا في منزلهـا الصغيـر، لـم تعـد تسـير بجـوار الفتاريـن، كانـت تخشـي أن تـري صورتهـا فتفـزع، دائمـة الشـرود،

قسمات وجهها لا يحمل سوي هموم الدنيا وما عليها، ما جعلها أكثر مرتادي ذلك المبني إثارة للاهتمام والشفقة، بشكل جعلني أشعر أن وراء هدوءها وصمتها وتنهداتها التي لم تتوقف أشياء كثيرة، ورغم ذلك تتواري عن الأعين حتي لا يري أحدهم ما فعله ذلك الخبيث بجسدها الضئيل.

«درست الحقوق في بلاد يضيع فيها الحق.. أفهموني أنني سأحقق العدل فاختل كفتي ميزانه».. بضع كلمات سمعتها تهمس بها الفتاه حينما حاولت أن أتودد إليها، لم تنظر إلي، اخفت وجهها عني، ازدادت انكماشا وكأنها تخجل من شيء ماء، لم أتفوه بكلمة، احترمت ما فرضته علي نفسها من عزلة، وقفت صامتًا، بين الفينة والأخرى تلتقط أذني بضع كلمات مبعثرة، «هما عارفين أنه مفيش فايدة.. يجيبوني من طنطا عشان يدوني أمل.. والكيماوي جبار، قاتل، بيموتني حته حته، ويسيب السرطان حر طليق»، أعياها الإنتظار في طابور يبدو أنه لا ينتهي، فعادت برأسها إلي الوراء لتستند علي جدار المبني..... ورأيت وجهها، بقايا أنثي.

وكأن ثعباناً قد لدغها، انتفضت فجأة، وكأنها أدركت إنني أحملق في وجهها، لم تكن تريد ذلك، إلا إنها نظرت إلي نظرة جعلتني أشفق عليها، ثم بدأت تتمتم من جديد بعباراتها المبعثرة:

«إنت عارف يا اسمك إية.. أنا بسافر من طنطا للقاهرة كل أسبوع مش عشان أخف من السرطان.. أنا عارفة أن مفيش أمل.. أنا بسافر عشان اخرج أشوف الدنيا، أقابل ناس تانيه، أشوف وشوش جديدة»، التفتت «هدير» إلي وكأنها تناست خجلها، تنهداتها المتقطعة، ضربات قلبها المسموع، ينبئان عن صعوبة ذلك، لكن يبدو أنها تريد أن تواصل الحديث، «الصدفة كانت بدايتي والجهل والإهمال كتبوا نهايتي.. هل تصدق أن زلة قدم أصابت كتفي بورم سرطاني».....

«إذا كنت تبحث عن قصة يا بُني، تتبع الإهمال.. قصتك دائما خلف أحد المهملين».. منذ الوهلة الأولي لدخولي عالم صاحبة الجلالة، لم أسمع سوي تلك العبارة الخالدة، تلك العبارة التي مازلت أري واقعيتها في كل قصة كتبتها طيلة ثلاثة عشر عام، واليوم تقف «هدير» مثالاً حي لمصداقية قائليها، فزلة قدم طفيفة أصابت كتفها الأيمن بورم طبيعي، ولكن أحفاد «أبقراط» في معهد طنطا للأورام كان لهم رأي أخر، قاموا باستئصال الورم دون معالجته بالكيماوي، ثم ودعوها مهنئين بالشفاء، ويوم بعد يوم، ينمو ورم جديد، بل وينتشر في جميع أنحاء الكتف، ووصل إلي حد أكل عضلات الكتف الذي أصابه العجز.

«بيني وبين الإهمال قصة غرام يا سيدنا».. هكذا أجابتني تلك الفتاة المسكينة، قالت عبارتها ضاحكةٌ، بانت نواجذها للمرة الأولي، وكأن اللؤلؤ صفف بين فكيها، لوهلة ظننت أن وجهها الحقيقي قد لاح لناظري، وراح عن عيني غشاوة شحوب وجهها، وعادت بنت العشرين لبهائها وصفائها من جديد، حتي خُيل إلي أن هذا الإهمال حبيب قديم أو عشيق راحل، فتلك الشمعة التي أذابتها النار لم يكتفي أحفاد «أبقراط» في طنطا بإصابتها بالخبيث، ولكنهم أضافوا لها في القاهرة نكهة الكبد الوبائي، كانوا يدركون أن هذا ما ينقص تلك الفتاة.

كالفرق بين الربيع والشتاء تحول وجه الفتاة من وجه صحو صبوح إلي وجه مكفهر ملبد بالغيوم، عاد الآسي والألم يحفر معالمه عليها من جديد، لم ترغب في أن تعيش البقية الباقية من حياتها وحيدة منبوذة من الجميع، لذلك أخفت سر إصابتها بالوباء الكبدي عن اقرب الناس إليها، كانت تعلم أن مشهد النهاية قد اقترب، وأنا أيضاً أعلم ذلك، وأنا اكتب تلك الكلمات هي الأن ترقد تحت التراب، نسيت ذلك المسخ العجوز الذي أكله الورم، لا أتذكر منها سوي ذلك الوجه الصبوح الذي ظهر للحظات، وفي مخيلتي تلك النواجذ وصفي اللؤلؤ، وعين تذكرت لونها الأن، خضراء تسر الناظرين.

●●●

لا يمكن علي الإطلاق أن تترك هذا المبني المخيف قبل أن تلقي نظرة علي طابق البراعم، البعض يطلق عليها جنة الأطفال، والبعض الأخر يطلق علية جناح العصافير، عن أي جنة وآي عصافير يتحدثون، عصافير بلا أجنحة أم جنة تحولت إلي جحيم، فنظرة واحدة إلي وجوههم ستجعلك تدرك أن الجنة اكفهرت وتلبدت بالسواد، والعصافير سقط أجمل ما فيها.

«يا بنات يا بنات يا بنات اللي ماخلفش بنات.. ماشبعش من الحنيه ولا داقش الحلويات».. ما أن تخطو قدميك ذاك الممر المُظلم، حتي يتناهى إلي مسامعك ذلك الصوت الملائكي، صوت للوهلة الأولي تظن أنه آتٍ من أعماق وادي سحيق، أو من جوف كهف عميق، عبثاً ألتف حول نفسي بحثاً عنه، لا أدري من أين يأتي صوت الكروان هذا، خلف أحد تلك الأبواب المُطلة علي الممر حتمًا يئن ملاكي بصوت شَجن، ببطء تحركت قدماي، لا تعلم إلي أين، فجميع الأبواب مغلقة، عدا باب واحد في أخر الممر، لا أعلم لماذا لم انتبه إليه، بصيص من الضوء يعافر لكي يتسلسل من خلال شق صغير، أسرعت الخطى وقد أيقنت أن خلفه كرواني الحزين، وقفت أمام الباب مشدوهًا، إنها غرفة الألعاب إذا، هكذا حملت لافتته، اختلست صاحبة الصوت الشَجن ما بين الجلسة والأخرى لتلهو قليلاً.

بأصابع مرتجفة مددتُ يدي، برفق دفعته، حرصت علي أن لا يُصدر صوتًا يُزعج هذا الملاك الحزين، رويدًا رويدًا لاح خلف الباب جسدها الضئيل، تمسك بين يديها لُعبتها المفضلة، عروسة جميلة، تحتوي بكفها شعرها الذهبي، وباليد الأخرى تمشطه بمشط صغير، كانت كأم صغيرة تعتني بطفلتها، تصنع من شعرها ضفائر رفيعة، ثم تربط كل ضفيرتين بشريط أحمر، لم تنقطع عن الغناء، لم تلحظ وجودي، لم ترفع عينيها عن عروستها الأثيرة.

كجلمود صخر لم أتحرك ساكنًا، فقد هالني ما رأيت، فتاة صغيرة لم تتعد السابعة ربيعًا، هزيلة الجسد ترتدي قميصًا أخضر، تهندم شعر عروستها، في حين لا يحمل رأسها شعرة واحدة، أسقطه الكيماوي بغدره المُعتاد، لم أشعر أنها توقفت عن الغناء، ولكنني انتبهت إلي إنها تستدير إلي، رأيتها، طفلة كأجمل ما يكون، بيضاء البشرة بُنية العينين، لم يسلبها اختفاء شعر رأسها وحاجبيها وأهدابها فتنتها الطاغية، تسيل الدموع علي وجنتيها الورديتين أنهارا، لم تنطق ببنت شفه، فقط راحت تمسح شعر عروستها، وهي تقول بصوت خافت، باسم، «شوفت شعر عروستي يا عمو.. عملتلها أحلي ضفاير.. ولما شعري يرجع زى الأول هعرف اعمل لنفسي ضفاير».

عادت الطفلة لغنائها من جديد، تجاهلت وجودي أو تناسته لم يعد هذا هو المهم، فما شغلها عني سرق البقية الباقية من عقلي، راحت تلك الطفلة التي مازلت أجهل أسمها تخاطب عروستها ببراءة تقطر دمعاً، «ماما أنا هنا ليه.. وشعري راح فين.. طب هيرجع تاني ولا كده خلاص.. عاوزة اعمل ضفاير زى عروستي.. راحت فين ضفايري يا ماما»، أمام تلك التساؤلات المشروعة لم يعد بمقدوري أن أتفوه بكلمة واحدة، فتلك طفلة لم تدرك بعد أنها تتعايش مع مجرم أثيم، وحش فتك ببراءتها وحرمها أجمل سنوات عمرها، بل حرمها عمرها كله، فقد ماتت فجأة ودون سابق إنذار، ماتت دون أن يجيبها أحد علي تلك التساؤلات، ماتت دون أن تعلم أين ذهبت ضفائرها.....

●●●

لم يعد يهتم بعد أن رأى بعينه نفور أولاده وزوجته

المنبوذ

نهار خارجي: قرية دندنة – القليوبية – ٢٦ ديسمبر ١٩٥٦.. ليلة من ليالي الشتاء، السماء كعادتها ملبدة بالغيوم، تعانقت السحب، وأمطرت، بين الحين والأخر تنشق السماء عن أضواء برق مصحوبة بهزيم رعد هادر، أضفي علي القرية لوحه كئيبة، أعلي منزل طيني كاد أن يذوب تحت وطأة الأمطار، جلس «جابر» يراقب الطريق بعيون ملؤها الرعب، ينتظر زائر لم يدعوه، يعلم أنه لا يضمر له خيرًا، لذا وقف في هذا الجو قارص البرودة يرقب الطريق.

في الأفق تحرك ركب من ثلاث سيارات عسكرية، يحيط بها عشرات الجنود والخفر حاملين أسلحتهم النارية، لم تهتز أبدانهم لبرودة الجو، لم يبالوا بما علق بأقدامهم من وحل، من اعلي منزله شاهدهم «جابر»، خفق قلبه ألما، لقد جاءوا من أجله، ارتعدت أطرافه، ليس لبرودة الشتاء، ولكن لبرودة هذا اللقاء، هب واقفاً وكأنه يلتمس غوثاً، راح يخبط علي رأسه نائحاً، «يا خراب بيتك يا جابر.. يا خراب بيتك»، بخطوات متعثرة هرع «جابر» بالنزول علي السلم الطيني باحثا عن مخبأ.

داخل غرفة الخزين الصغيرة، انزوي «جابر» في ركن خلف أجولة الذرة وشكائر القمح، جالسا القرفصاء مُحيطًا جسده الضئيل بحصيرة بالية من الخوص، حاول كثيرا أن لا يصدر صوتًا، ولكنه فشل فشلاً ذريعًا، فقد خلق اضطراب قلبه وارتعاش جسده وارتجافة أوصاله وأنفاسه اللاهثة حالة من الضوضاء، كاد قلبه أن يتوقف من الرعب، ملئ الرعب وجهه المتقيح، كانت نظراته الزائغة للباب وتقلصات وجهه العصبية توحي بأنه ينتظر رسول الموت.

جلس «جابر» في مخبئة يسترق السمع، فانه يسمع الأن أصواتهم، ضربات أقدامهم الثقيلة علي الأرض، أفلتت منه صرخة مكتومة كادت تنبئ عن مخبئه، فعاد يضغط بكفيه علي فمه كيلا يصدر أي صوت، ازداد تمسكًا بجدران منزله المحاصر، ففي صالة منزله وقف شيخ الخفر يصرخ في أولاده وزوجته «فين جابر يا أم العيال.. العمدة مشدد علينا نسلمه للنقطة»، سمع «جابر» صرخات زوجته وطفليه، وتنامي إلي مسامعه صوت اقتحام غرفة الخزين، لم يبحثوا كثيرا، فقد هب «جابر» واقفا كاشفا عن مخبئه، وراح يصرخ «أنا لم أفعل شيئا ... أنا لم ارتكب جريمة».

لم يبالي الجنود بتوسلات «جابر»، فأسرع جابر يتشبث بأي شيء، كان الجنود يجرونه من قدمه وأصابع يده التي برزت عروقه

المشوهة تنغرس في تراب أرض منزله لتتشبث بها في مشهد يذكرنا بمحمد أبو سليم في فيلم الأرض، ولكنها انفلتت لتمسك بقدم اصغر أبنائه مستنجدا به، ففوجئ به ينتفض ويبتعد عنه وكأنه شخص ملعون، فاستسلم «جابر» وترك الرجال يسحلونه فاردا يده أمامه وملقيا وجهه على الأرض حتى غبر التراب وجهة وشعر رأسه، كان يتأمل وجوه أبنائه بعيون زائغة لن تراهم مرة ثانية، وأذان تسمع نحيب زوجة تقف على احد أركان المنزل، تحاصرها فوهات البنادق من كل صوب وحدب، تتابع بعيون دامعة زوجها الذي احتلت جسده روح شريرة جعلت منه مسخ بشع تحسبه شبح.

لم يكن «جابر» يعلم عندما وجد نفسه فجأة في سيارة البوليس إلى أين سيصطحبونه، وماذا سيفعلون به ولكنه لم يعد يهتم بعد أن رأى بعينه نفور أولاده وزوجته، تحركت السيارة وسط حشود أهالي قريته والقرى المجاورة، بصعوبة بالغة تمكنت سيارات الشرطة من الخروج من القرية بـ«جابر»، مرت ساعات طويلة، وجابر ينظر من نافذة السيارة لا يعلم إلي أين سيذهبون به، أخيرا وصلت السيارة بحملها إلي بقعة معزولة في الصحراء بعيدا عن الحياة، بقعة لا تسكنها إلا الأفاعي والذئاب.

ستون عاما عاشها «جابر» داخل تلك البقعة المنعزلة، بقعة أطلقوا علي بابها اسم «مستعمرة الجذام» لا يعلم عنه احد أي

شيء عاش منبوذًا طريدًا من مجتمع لفظه وكأنه جرثومة يخشون أن تصيبهم بلعنه المرض الموبوء، ستون عام عاشها «جابر» داخل المستعمرة حياة «الزومبي» أو «الموتى الأحياء»، تلك الكائنات الأسطورية التي اخبرنا عنها الأدب اللاتيني في أول وصف لمرضي الجذام، ذلك المرض الذي تم الكشف عنه في جزيرة هايتي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

رحلة طويلة قد تستغرقها للذهاب إلى مستعمرة الجذام، لم يجدوا لها موقعًا أكثر بؤسًا من أطراف مترامية من صحاري منطقة أبو زعبل التابعة لمحافظة القليوبية، والتي رغم بُعدها عن عاصمة المحروسة، ومشقة الوصول إليها، وعبور الكثير من الدروب والطرق غير الممهدة، إلا أنها كرحلة قد تكون فرصة حقيقية للاقتراب من ذلك العالم المُخيف، عالم «الموتى الأحياء».

لم تكن الوسيلة الوحيدة للذهاب مستعمرة الجذام متوفرة كما يعتقد البعض، فعليك أولاً أن تستقل قطار أبو زعبل المتهالك من محطة المرج الجديدة للذهاب إلى محطة أبو زعبل، وتستغرق تلك الرحلة حوالي ٢٠ دقيقة، وبمجرد وصول القطار، والخروج من تلك المحطة شبه المهجورة، ستجد العشرات من السيارات الصغيرة، التوكتوك، يقف بجوارها سائقيها ينادون بأعلي أصواتهم بحثًا عن زبون.

«مستعمرة الجذام يا عم الحج».. اختفت تلك الحفاوة التي استقبلني بها ذلك العجوز، فبمجرد أن أخبرته بوجهتي تراجع متذمرًا، لاح العبوث علي وجهه قليلاً قبل أن تختفي، ثم التفت إلي قائلاً، «أعذرني يا بني.. لقد انتهت ورديتي.. وعلي أن أعود إلي المنزل»، كان يبدو واضحًا أن العجوز تراجع بسبب تلك المستعمرة، ارتجافة جسده، عينية المذعورة، حالة الجذع التي ظهرت علي وجهه لوهلة، كلها تنبئ بذلك، استدار الرجل ليجلس داخل سيارته الصغيرة، بينما وقفت أنا لا أعلم كيف سأذهب إلي تلك المستعمرة.

«متشيلش هم يا أستاذ.. أنا مستعد أوصلك لحد باب المستعمرة».. صوت يبدو طفوليًا جعلني ألتفت إليه، طفل صغير، لم يتخط الثامنة من عمرة بعد، طويل القامة نوع ما بالنسبة لسنه الصغير، أسمر البشرة، يعاني من عرج غير ملحوظ بقدمه اليمني، فبادرته قائلاً بشيء من الاستخفاف، وهل تعتقد إنك تعرف الطريق، فأجابني بلهجة لا تقل استخفافًا، إنه منزلي يا أستاذ، نزلت عبارة الطفل علي رأسي كالصاعقة، فذلك الطفل أحد الموتي الأحياء.

طيلة الطريق إلي مستعمرة الجذام لم يتفوه أحدنا بأي كلمة، تفرغ الطفل لقيادة ذلك التوكتوك المتهالك بين مزارع التين

الشوكي، بينما تفرغت أنا لمراقبته في توجس، رغم علمي بأن ذلك المرض اللعين لا ينتقل باللمس أو حتي بالهواء، إلا أن جسدي رغمًا عني بدى منكمشًا، بين الفينة والأخري ينظر إلي ذلك الطفل من خلال المرآة المهشمة نظرة لا مبالاه، قبل أن يطلق ضحكة طفولية ساخرة، قبل أن يقول: «يا أستاذ انا صحيح عايش داخل المستعمرة.. لكني معنديش جذام.. أنا أعيش مع أبويا وأمي.. أبويا شغال غفير علي المستعمرة، ابتسمت للصبي وقد أيقنت مدي سذاجتي، أوقف الصبي فجأة التوكتوك أمام باب المستعمرة، قبل أن يقول: «هذه هي المستعمرة يا أستاذ.. لا تقول لأحد أنني أعيش هنا»، أومأت لسائق التوكتوك الصغير واعدًا إياه، قبل أن أتركه باحثًا عن العم جابر.

ها هو أخيرًا وجدته أنه العم جابر في صورته وهيئته، يهيم على وجهه على عكازين، يرتدي حذاء تم تصنيعه بشكل خاص شبه دائري، قصر طوله بفعل بتر أجزاء من قدميه، أسرعت أنادي عليه لأسمع قصته مع تلك المستعمرة، التفت إلي بوجه نحت فيه الجذام وجعله أشبه بأسد، قائلاً بلهجة ريفية مرحة: «لسه فيه حد فاكر جابر... جابر مات من سنين يا ولدي... دفنتوه بالحيا وسيبتوه يعيش مع الديابة والعقارب»، رفع «جابر» عكازية ثم التفت إلي غرفة بتر الأطراف قائلا بسخرية: «الأوضه

دي يـا ولـدي دخلتهـا كتيـر.. وكل مـرة بتمنـي أن السـلاح ينـزل علـي رقبتـي ويخلـص عليـا.. لكـن العمـر طويـل.. وسـنة ورا سـنة عايـش مشـوفتش حتـي ولـدي»، ثـم التفـت ألـي مـرة ثانيـة وراح يلكزنـي بعـكازه قائـلا بحـده مفاجـأة: «ارحـل يـا بنـي... ارحـل لحسـن تتعـدي منـا.. ولا نتعـدى منـك إنـت.. الوبـاء بـره بقـي كتيـر».

كلمـات العـم «جابـر» ألجمـت لسـاني عـن الـكلام، عذرتـه كثيـرًا علـي مـا قالـه، فقـد عانـي الرجـل الأمريـن طيلـة سـتون عـام مضـت، تركنـاه طويـلاً يعاشـر الذئـاب والثعالـب والثعابـين والعقارب، كشـخص موبـوء طردنـاه مـن حياتنـا، حتـي زوجتـه وأولاده لـم يكلفـا خاطرهمـا بالسـؤال عنـه، مـاذا عسـاي أن أفعـل بعـد كل هـذا، غيـر إننـي أسـرعت إلـي فتـي التوكتـوك ليعـود بـي مـن حيـث أتيـت، لأعـود إلـي عالـم الأصحـاء، ذلـك العالـم الموبـوء، الـذي طـرد مـن رحمتـه ذلـك العجـوز.

●●●

يقف في منطقة وسطي بين ميلاده كإنسان ووفاته

تغريدة قاتله

رغم برودة شتاء ديسمبر، وكعادته فجر كل صباح، ما أن ينطلق رنين المنبه الصغير المجاور لفراشة حتي يفتح عينيه متأهبًا، ظنًا أن هذا اليوم يحمل له ميلاد جديد، رغم أنه تعود علي اكتشاف أن تلك الظنون من النوع الأثيم، راح يهز رأسه يمينًا ويسارًا، نافضًا ما علق بها من بقايا إحباط أيام كثيرة مضت، أزاح غطاءه ثم وقف مرة واحدة علي قدميه، وراح يتمطع يمينًا ويسارًا نافضًا عنه حنين العودة إلي الفراش مرة أخري، قبل أن يتجه إلي جهاز الكمبيوتر صديقه الوحيد.

شاب صغير، أسمه كريم، لم يتجاوز السابعة والعشرين، لذكائه الخارق لقبه زملاء جامعته السكندرية بـ»جيتس البحر المتوسط»، لعبقريته في مجال الكمبيوتر والبرمجيات، كان يظن أنه وبمجرد تخرجه ستتصارع الكثير من الشركات لاختطافه، ولكنه كما قُلنا تعود أن الكثير من الظن من النوع الأثيم، مرت خمس سنوات علي تخرجه، ولم يري هذا الصراع، أجري المئات من المقابلات، ولم يجد أي متحمس له، لم تنجده عبقريته، لم يسعفه تفوقه، فقط لأنه إنسان بسيط، لم يمتلك يومًا ذلك الفانوس السحري المُلقب بالواسطة، ليحصل علي أبسط حقوقه.

شـاب صغيـر، رغـم سـنوات عمـره تلـك لـم يبـدأ حياتـه بعـد، يقـف كمـا يقـول دائمًـا في منطقـة وسـطي بـين ميـلاده كإنسـان ووفاتـه، مـن يـراه لا يـدرك انـه في العقـد الثالـث مـن عمـره، بـل كهـل عجـوز، أطلـق لحيـة صغيـرة مازالـت في مرحلـة النمـو، وشـعره طويـل أسـود بـدأ يخـط الشـيب بعـض خصلاتـه، ووجـه شـاحب مسـتطيل اختفـت معالـم لونـه الخمـري، يميـل إلـى صفـرة شـخص مريـض، أمـا عينيـه الضيقتـين، فكانـت النافـذة التـي يمكـن أن نـرى مـن خلالهمـا مـا يجـري في عالمـه الداخلـي، دائمًـا قلقتـان، نقـرأ فيهمـا الانتظـار والأمـل والقلـق، هكـذا صنعـت منـه السـنوات الخمـس الماضيـة.

لـم يشـعر كريم بتلـك التـي وقفـت علـي بـاب غرفتـه تتأملـه بحـذر مريـب، تلـك الأم التـي دائمًـا مـا تـردد كلمـا رأتـه بصـوت خافـت، ليتنـي مـا أنجبتـك لتعانـي هـذا المصيـر، تحـدت أمـراض شـيخوختها ووقفـت خلفـه مُحملقـة، تراقـب ابنهـا الوحيـد بعـين مُشـفقة، شـيء مـا جعلهـا لا تغمـض العـين منـذ ودعتـه ليلـة أمـس، باتـت ليلتهـا تصلـي وتدعـو لـه، كأن شـيء مـا سـيصيب وليدهـا، اضطـراب قلبهـا، ارتجافـة جفنيهـا، تنبئانهـا بذلـك.

التفـت كـريم فجـأة ليجـد أمـه تقـف هكـذا بـلا صـوت، فقـال بصـوت هـادئ: «مـاذا هنـاك يـا أمـي»، تنهـدت أمـه قائلـه بصـوت غلـب عليـة التوتـر: «لا شـيء يـا ولـدي.. هـل سـتخرج مبكـرًا اليـوم»، أطـرق رأسـه حزنًـا ثـم اتجـه إلـي جهـازه متمتًـا بصـوت إنسـان يتألـم، لـن أخـرج اليـوم يـا أمـي، جـدول اليـوم لا يتزاحـم فيـه تلـك المقابـلات

السخيفة، سأفعل كما فعل السابقون، إما أن أعيش سجين هذه الغرفة لاعنًا سنوات ضاعت بلا فائدة تُذكر، أو أن أمزق تلك الورقة عديمة الفائدة وأبحث عن شيء أخر لا علاقة بها، آلا ترين أن هذا حلاً يرضي جميع الأطراف.

التفت كريم إلي جهازه، تجاهل تلك الأم التي لم تذق طعم النوم ألمًا عليه، لم تجد كلمات يمكن أن تواسيه بها، فقط، تركت العنان لسيل من الدموع الصامتة، قبل أن تتركه متجهة إلي غرفتها، في حين انشغل ابنها في متابعة صفحته علي موقع التواصل الاجتماعي، مشرد الذهن، لا يبالي بما كتب عليه، فقط يتنقل هنا وهناك بلا أي هدف، حتي جاءته تلك الرسالة، لم تكن من أحد أصدقائه، ولكنها تمكنت من لفت انتباهه، فراح يقرأ فحوي ما جاء بها، بين الحين والأخر تتسع عينيه.

«السلام عليكم يا أخي في الإسلام.. كل أخ مسلم أخ لي لم تلده أمي، وأنا أخ لك عاني كثيراً إلي أن وجدت ضالتي.. وجدت أن الإسلام هو الحل.. الحل في حياة كريمة.. الحل في مساواة بين جميع الناس مهما اختلف الدين، ومهما إختلفت اللغة، ومهما إختلف اللون.. لذلك يطلقون علينا إرهابيين.. يتهموننا بأننا قتلة لأننا لا نريد سوي تطبيق شرع اللّه.. لم يفزعوا من قتلهم الملايين في العراق وفلسطين والصومال وأفغانستان.. هم الإرهابيون يا أخي وليس نحن»

تلك كانت الرسالة التي استرعت انتباه كريم، بل جعلته يستسلم بكل حواسه لكل حرف جاء بها، وكان من الطبيعي أن تثير شاب بسيط مثله، شاب عاش عمرة يبحث عن تلك الحياة الكريمة، فهو مثل الكثير من الذين تربوا وعاشوا بحثًا عنها، شاب من السهل ان يقع فريسة لتلك الرسائل العابرة للمكان والزمان، مجهولة المصدر والهوية، ولكنها عادة ما تنجح في اللعب علي ذلك المرض الذي يُصيب كل من أصابته تلك الحسرة وخيبة الأمل، وكانت تلك القصة التي لعبوا بها علي كريم.

●●●

خلف جهازه جلس إيتان بن نوعام يحتسي القهوة، بين الفينة والأخرى ينظر إلي صفحته التي حملت اسمًا غير اسمه، وصورة غير صورته، يتابع ذلك الحديث الذي يدور بينه وبين شاب ليس من مواطني أبناء جلدته، والذين ينتمون لذلك الكيان الذي زرعوه في جسدنا المريض، كعازف محترف راح يلعب علي أوتار جراح ذلك الذي يتحدث معه، يُحدثه عن تلك الأحلام التي دائمًا ما تراوده، عن تلك الحياة التي أنهك عقله وجسده بحثًا عنها، نجح أخيرًا في ان يجذب انتباهه كخطوة أولي لنجاح خطته.

في تلك اللحظة اقتحم رجل تلك الغرفة، يرتدي حلة رجل جيش زيتيه اللون، انتفض إيتان بمجرد أن رآه يقف أمامه، رفع يده بالتحية العسكرية، ثم قال بصوت قوي، أمر سيدي ذلك الشاب أصبح جاهزًا لما نريد، تقدم الضابط من جهاز إيتان، راح يراجع مناقشته مع ذلك الشاب، وكيف أنه أضحي مستعدًا للانضمام دون ان يدري إليهم.

وبينما كان الضابط يتابع باهتمام صفحة ذلك الشاب، تقدم إيتان منه بهدوء قائلاً، لا تقلق سيدي، هذا الفتي سيكون لنا صيدًا ثمينًا، منذ أكثر من ستة أشهر وأنا أضعة تحت مراقبتي الشخصية، وهناك قاعدة معلومات عن كل ما تعرض له من ظلم وقهر، وعن كل ما كتبه من يوميات ترصد حالة البؤس التي يعيشها، التفت الضابط إليه متسائلاً، وكيف سنتعامل معه ونقنعه بالانضمام إلينا يا إيتان، لاحت علي وجهه تلك الابتسامة الصفراء التي لا تليق إلا به، قبل أن يقول ساخرًا، ولماذا يا سيدي نسعى نحن إليه، ورجالنا هناك قادرون علي الوصول إليه، فأنفجر الاثنين بتلك الضحكات الشيطانية وقد أدركوا أنهم أخيرا وضعوا أيديهم عليه.

جلس إيتان بن نوعام أمام جهازه مرة أخري باحثًا عن صفحة شخص أخر، ثم راح يدون رسالة بأمر مدفوع الأجر، «عزيزي السيد بسام، في ارض النيل شخص يدعي كريم، بلغ من

الجاهزية ما يمكنك من الاستفادة منه، يؤمن بأن الدماء تطهر تلك الروح الشريرة التي تحلق فوق رؤوسكم، وأن جسده بُعثت فيه الروح من أجل إعلاء كلمه الله علي تلك الأرض، وإني أرسل إليكم صفحته الشخصية لتجنيده علي الفور، التوقيع المهدي المنتظر، ثم وضع رابط صفحة ذلك المصري المطحون أسفل رسالته.

●●●

«أين أنت يا صديقي.. لماذا لم تأت في الموعد».. بهذا العبارة استقبل شريف رسالة صديقه علي موقع التواصل الاجتماعي، فقد كان بينهم موعداً للتنزه، تلك الاضطرابات التي اشتعلت في المنطقة التي يعيش فيها، وحرب الشوارع التي اندلعت منذ أمس بين مؤيدين ومعارضين، منعته من الخروج خشية الإصابة أو القبض علية.

«أسفل منزلي كمين يعج بالضُباط ومدجج بالسلاح».. إجابة عفوية قد تبدو بسيطة، ولكنها في واقع الأمر الإجابة التي ينتظرها البعض، فعلي بُعد آلاف الكيلو مترات، يجلس ذلك الضباط خلف شاشته يلتقط تلك العبارة التي يكتبها، ومن حديثهم المتبادل علي الخاص يمكنه أن يعلم كل معلومة عن موقع الكمين ونوعية الأسلحة وحجم العدة والعتاد، بل وعدد ضباطه، واقرب نقطة إمدادات يمكن أن تصلهم.

«بووووووووم».. فجأة وبدون مقدمات يدوى في سماء القاهرة انفجار ضخم يهز أرجاء المدينة الساكنة، تسود الأجواء اضطراباً وهلعاً من هول المشهد الأليم، الأشلاء في كل مكان، وما بقى من أجساد الجنود تفحم، اشتعلت النيران في السيارات ومداخل بعض المنازل، انطلقت الحناجر بالصُراخ هنا وهناك، وكالعادة فر الجبان بفعلته الخسيسة بعد أن أدي مهمته.

●●●

لا ثورة في تلك المدينة الجائعة

الهاربون من الحياة

«لن يستطيع أحد هزيمتك إلا إذا هزمت نفسك».. عبارة ترددت في عقل ذلك الذي وقف في غرفته ينظر إلي بضع صور زينت أحد جدرانها، لا يعلم لماذا ينتابه ذلك الشعور الجارف بالرحيل عن كل شيء، غير أن نظرة إلي تلك الصور تجعلك تدرك أن مسًا أصاب ذلك الرجل هذا اليوم، فتلك صورة له يحمل أثقالاً بيدين عاريتين، وأخري يلتحف بعلم بلاده ظافرًا بفوز عظيم، يمسك بإحدى يديه ميدالية أولمبية، في حين أشار بالأخرى علامة نصره المبين.

علي طرف شفتيه حمل ثغره تلك الابتسامة، والتي جمعت ما بين نشوه زمن لم يعد زمنه، وسخرية إنسان يتألم أثر الخذلان، فما فائدة أن يفخر بمجد لم يشعر به غيره، ما فائدة أن يبذل عرقٌ لمن لا يستحق جهده، كانت مجرد لحظة انتابتهم فيها نشوه انتصار نسبوه لأنفسهم كذبًا، ثم كان يومٌ احتشدوا لتكريم سرقوا أضوائه، فاعتلي هذا منصةً متحدثًا عن دعمه، وتبارى أخر في إظهار تلك الخدمات التي قدمها لبطل قومي، ثم التقطوا تلك الصورة التي تزين منزله، قبل أن يختتموا يومهم بوداع ونصيحة آلا يعود إلي ذلك أبدًا.

تنهيدةٌ حارةٌ أطلقها الرجل بصوت هادر، كادت من قوتها أن تشعل حجرته الصغيرة، حتي أنه شعر بدفء شمس ساطعة في نهار شتاء بارد، فتصبب عرقًا غزيرًا أو هكذا توهم، فراح يمسح جبينه الجاف من عرق لم يسيل، قبل أن يتمتم قائلاً، لا تبتئس هكذا يا رجل فتلك أيام ليتها لا تعود، وهذه المدينة لا تجيد صناعة شيء عظيم، ظننت يومًا أنك وصلت إلي هدفًا حلمت به، ولكنك كما تعودت ظن من النوع الأثيم، ثم اعتدل نافضًا رأسه مما علق من غبار ذكريات أليمة، قبل أن يتجه إلي مكتبه الصغير، وصديقة الوحيد.

«ألف شركة وألف رجل أعمال، مفيش حد فيهم يقدر يرعاني لحد أولبياد ٢٠٢٠ لتحقيق حلمي الكبير، فوضت أمري ليك يا رب».. عبارات قليلة راح يكتبها الرجل علي حسابه الشخصي علي موقع التواصل الاجتماعي، لم يكن لديه من يبوح إليه بوجيعته، يدرك أن أحدًا لن ينصت إلية، لذلك فضل الحديث مع نفسه، أو كتابه ما يشعر به، علّه يجد فرصة تعيد له حلمه من جديد، فرصة يحقق من خلالها انتصارٍ، يعلم جيدًا أن نشوتها ستطول الجميع، من ساندوه ومن أهملوه، فرصة تجعله لا يهرب من الحياة.

ذات صباح منذ عشرين سنة مضت، حينما كان هذا الرجل في العاشرة من عمره، لبي نداء صاحبه في الفصل للذهاب إلي الساحة الشعبية المجاورة لقريته، فهذا اليوم تُلعب بطولة الجمهورية في رفع الأثقال، وقف الطفل وسط حشد كبير يراقب بعين الإعجاب رجال اصطفوا تمهيداً لبدء بطولة تحدي الأقوياء، ممشوقي القوام يتمتعون بعضلات بارزة، اكتسبت أجسادهم صلابة الفراعين الأولين، رأي فيهم حُلم راوده يوم ما، أن يقف هكذا علي منصة الفائزين حاملاً لقب الأقوى، ليس في قريته أو حتي في بلده، بل في العالم اجمع.

لم يُخيب الظن هذا الفتي، فقد أضحي يومًا ما أراد، حقًا عاني الكثير من أجل تحقيقه، حقًا واجه العراقيل بصدر حاول أن يُظهر أنه رحب، ولكنه في النهاية حقق ما حلم به، أضحي رجلاً قويًا يعتلي منصة تلو الأخرى فائزًا، جاب الكرة الأرضية شرقًا وغربًا رافعًا راية بلده، مرت عشرون عامًا ولم يتغير شيء، نفس الحفل الذي ينتشي به الآخرون، ونفس الصورة التي اعتاد أن يزين بها جدار غرفته، واليوم وقد أضحي رجل قارب الثلاثون من عمره، أدرك أنه لن يكون قادرًا علي مواصلة تحقيق حلمه، وأنه آن الأوان للفرار من تلك الحياة.

●●●

لم يكن شروق شمس هذا اليوم كأي شروق، ليس لأنه يوم من أيام الربيع الجميلة، تناغمت فيه كل خلائق الطبيعة لرسم تلك اللوحة الساحرة، علي كورنيش نيل القاهرة، وقفت تلك الأشجار الزاهرة، تتراقص علي أنغام ريح رطبة مغمسة بالندي، فتهللت علي أفرعها الطيور الجواثم، تحوم فيما بينها فراشات بحث عن الرحيق، وتسلقت الطيور ثاقبات الخشب الكستناء، ناقرة بمناقيرها ثقوب اللحاء، وحلقت العصافير وطيور السنونو تزين تلك السماء، لقد استنشق من كان هنا ريح السعادة.

أعلي أحد الكباري النيلة العريقة، تلك التي تزينها الأسود الحديدية، تجمع حشد من الناس، رجال ونساء، أطفال وشيوخ، يتزاحمون لإلقاء نظرة علي حافة الجسر، رافعين أيديهم بهواتفهم المحمولة لالتقاط صورة تذكارية مع هذا الذي يتدلى، شاب صغير، لم يتخط الرابعة والعشرين، قرر الرحيل، وبكامل حلته الرسمية.

«مسقط رأسي من تلك التظاهرة، خبِّئْ مشاعركَ القديمةَ كلها، واكتبْ لمصرَ اليوم كلمات تليق بشعبها، لا صمتَ بعد اليومِ يفرِضُ خزيهُ، فاكتب نقداً لنيل مصر وأهلَها»..لا أعلم لماذا جاءت كلمات شاعرنا هشام الجُخ في مُخيلتي وأنا أري ذلك المشهد العبثي، فخرجت أبياته بتلك الصورة المُزرية، لتعبر بصدق عن ذاك المشهد الأليم.

قبل قليل، وداخل احدي مؤسسات العدل في بلادنا، وقف منصور أمام تلك اللجنة واثقًا، كان قد ودع والديه صباح هذا اليوم ممنيًا نفسه بتحقيق حلم حياته، فتي تخرج من الحقوق متفوقًا، وآن له أن يخطو خطوة طالما سعي إليها، رغم شكوك والده الذي يعمل كناسًا للمدينة، دائمًا ما يذكره، يا بني لن يوافقوا بك، لن يرضوا بقاض يعمل والده عامل نظافة، لا يغرنك تفوقك وحصولك علي المراكز الأولي، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، يا بني مثلنا لا مكان له تحت الشمس، ستعيش ابن كناس المدينة، وستموت ميتة ابن عمال النظافة.

لم يلتفت منصور لحديث أبيه، كان يظن أنه يعيش عصرًا غير عصره، وأن أبن الريس عبد الواحد جناينى الباشا قد أنهي تلك النظرة الدونية لبسطاء المصريين، ولكنه لم يكن يدرك أنه ظن من النوع الأثيم، وأنه ما ثورة قامت في تلك المدينة الجائعة، ارتدي الفتي أبهي ما لديه، حلة بسيطة ولكنها كانت أجمل ما يمتلك، رابطة عنق اعتقد أنها مناسبة، حذاء حرص علي تلميعه بنفسه، ذهب إلي المرآة ينظر إلي هيئته، أغمض عينيه، ثم راح يتخيل نفسه يقف بها في قاعة المحكمة ينتصر للحق والعدل.

«لا أعتقد يا بُني أنك تستحق هذا المنصب».. كلمات كالرصاص انطلقت داخل قاعة المحكمة، كلمات أيقظت الفتي منصور من

أحلامه، قالها والده ولم يصدقها، لماذا يرفضونه، لقد تفوق في دراسته علي الجميع، لا ينقصه أي شيء، مصري من أبوين مصريين، حصل علي المركز الأول علي جامعته، فمن يصلح غيره، لم يشعر أن ما يفكر به يخرج من فمه بصوت مرتفع، إلا أن ضحكات ساخرة متقطعة من أعضاء تلك اللجنة جعلته ينتبه، لا تقلق يا بني، هناك الكثير يستحق، لكنهم ليسوا مثلك، بل أعلي شأنًا.

من يري منصور صباح هذا اليوم لا يمكن أن يصدق ما آل إليه الآن، فشتان بين فتي خرج من منزله يحدوه أمل جعله مختالاً فرحًا بنفسه، وبين فتي قتلوا حلمه حتي قبل أن يولد، دون أن ينطق كلمة التفت تاركًا تلك اللجنة الظالمة، خرج من الغرفة منكس الرأس، يبدو عليه الحزن والانكسار الذي أوصله حد البكاء، حزن أدركه من ينتظر دوره من البُسطاء الحالمين في هذا البلد التعيس، انكسار جعل البعض ينسحب من تلك المنافسة غير المتكافئة، في حين انتفخت أوداج البعض ممن ظنوا أنهم أسمي وأرقي من علي هذه الأرض.

هام منصور علي وجهه في شوارع المحروسة، لا يدري إلي أين يتجه، ولا إلي أين تقوده قدماه، فقط لا يرغب في العودة إلي المنزل، العودة إلي ذلك الوالد الذي رفضوه لبساطة مهنته، يؤلمه أن يشعر ذلك الأب أنه سبب هزيمته، رغم تنبؤه بما سيحدث

هـذا اليـوم، راح الفتـي يلعـن سـنوات عمـره التـي قضاهـا دون فائـدة، راح يلعـن كل لحظـة حلـم فيهـا مـن أجـل هـذا الوطـن، كيـف يعيـش في وطـن رفـض الاعتـراف بإنسـانيته، بوطنيتـه، وطـن يتعامـل معـه كمواطـن مـن الدرجـة الثانيـة، وطـن صنـف أبنـاءه طبقًـا لدرجاتهـم الاجتماعيـة، طبقًـا لمهـن آبائهـم.

انطلـق صـوت المؤذن معلنًـا موعـد أذان الفجـر، في تلك اللحظـة وصـل منصـور إلـي كورنيـش النيـل، وقـف يتلفـت يمينًـا ويسـارًا، هـل هـام علـي وجهـه طيلـة هـذا اليـوم، مـن أيـن جـاء، وكيـف سـار في شـوارع المحروسـة كل تلـك السـاعات دون أن يـدري، إنـه لا يذكـر أي شـيء منـذ أن تـرك تلـك اللجنـة المشـئومة، إنـه يخشـى العـودة إلـي المنـزل، يخشـى مواجهـة والديـه، يخشـى مواجهـة نفسـه، أي حيـاة يمكـن أن يعيشـها بعـد اليـوم وهـو يعيـش مواطنًـا مـن الدرجـة الثانيـة، أي انتمـاء يمكـن أن يقدمـه لوطـن يرفـض وجـوده، أو حتـي يفخـر بـه.

اسـتند منصـور علـي سـور كوبـري قصـر النيـل متأمـلاً مياهـه السـاكنة، راح يشـكو لـه ضعـف قوتـه، وقلـه حيلتـه، وهوانـه علـي النـاس، كان يشـعر باختنـاق، فقـد سـد امتـلاء قلبـه بالحـزن حلقـه، لـم يعـد قـادرًا علـي احتمـال رابطـة عنقـه، فأسـرع بفكها بأيدي مرتعشـة، بكـي بحرقـة وهـو ينظـر إليهـا، ليسـت تلـك التـي رآهـا صبـاح هـذا اليـوم وأُعجـب بهـا، أمسـكها بكلتـا يديـه، رفعهـا أمـام وجهـه ليـري

ما جعله يندهش، لقد صنع دون أن يقصد من رابطة عنقه حبل مشنقه، كسجين حُكم عليه بالإعدام رآه يتدلى أمام عينيه، وما يدهشه أكثر أنه لم يجزع من هذا المشهد، ولكنه شعر بسعادة غامضة.

تلك هي النهاية إذا، نهاية إنسان أراد الحياة، ولكنهم أجبروه علي اختيار الموت، لم يفكر كثيرًا، كان يخشى التراجع أكثر من خشية الموت نفسه، دون تردد راح يربط طرف رابطة العنق علي سور الجسر، ثم صعد واضعًا الحلقة التي صنعها حول عنقه، نظر إلي السماء باكيًا، قبل أن يترك جسده يتهاوى أعلي نهر النيل، لتنتهي حياته كمواطن من الدرجة الثانية، وتبدأ حياته كإنسان فقد إنسانيته حينما كان حيًا.

●●●

هل سيسامحه اللّه علي تلك الكذبة البيضاء أم سيعاقبه عليها

حكايات الغريب

علي.. فتي صغير، جاء من احدي قري «نزلة البلشة» شرق النيل بمحافظة المنيا، وجدته جالسا أسفل سلم احدي العقارات المطلة علي شارع منصور ليستريح قليلا بعد عناء معركة طويلة طاحنه استمرت طيلة ليلة كاملة، واجه فيها الكثير من العناصر البلطجيه التي اندست وسط تظاهرات طالبت باحتياجات مشروعة، انهمك في تناول بعض من الطعام ويرتشف قليل من الماء.

علي.. عسكري الأمن المركزي، شاب لم يتعدى عمرة ٢١ عاما مثل أي شاب مصري بسيط، وجهه مألوف تشعر وكأنك تعرفه أو انه احد أقاربك أو أصدقائك... شاب تجده في كل شارع وكل حارة وكل قرية في مصر.. ورغم ذلك لا تكد تتحدث إليه حتي يشعرك بالغربة، اقتربت منه عسي أن احصل منه عن إجابة لحالة العداء الغريبة التي يحملها شعب مصري لرجل الأمن المركزي، فبادرته باسما قائلاً «ماذا تأكل ولماذا لا تدعوني لتناول الطعام معك.. شكلك بخيل».

لا اعلم من أين جاء ذلك الفتي الصغير بتلك الابتسامة الجذلة، فما يحيط بنا لا ينطق سوي بالألم والرعب، صوت الرصاص لم

يتوقف بعد، رائحة الغاز أزكمت الأنوف، ورغم ذلك وجدته يسرع بالنهوض مرحباً فارداً ذراعه قائلا بلهجته الصعيدية الأصيلة: «أتفضل يا ابن عمي جابر الزاد لجمة علي جد حالنا»، لم تكن سوي فطيرة صغيرة وقطعة جبن لا تكفي رجل واحد، ولكنها في وجهة نظرة غدوة «تمشي الحال لحد ما يرجع لست الحبايب».

جلست بجوار «علي»، بل تناولت من يده قطعة الخبز، كان سعيدا لأبعد الحدود، لم يتصور في يوم من الأيام أن يشاركه «بيه من بهوات مصر» علي حد تعبيره شطيرته البسيطة، «يا علي الناس بتكرهك وعاوزة تموتك زى ما بتموتهم»، أخرجني سؤالي من تلك اللوحة الرائعة التي رسمها وجهة البشوش، تصبب العرق علي وجنتيه، لمعت عيناه دماً، اضطربت شفتاه السمراوين، نحا الطعام جانباً قبل أن يمسح فيه من أثر الجبن، ثم قال بصوت متهدج باك: «يجتلوني ليه يا باشا أنا مجتلتش حد.. هما اللي عمالين يرمونا بالحجارة.. وأنا بدافع عن نفسي زى ما إنت شايف.. هما شوية عيال بياخدوا مصروف من أهاليهم.. وأنا عيل غلبان علي جد حالي بصرف علي أمي».

حاولت كثيراً تهدئة الفتي الصغير، فلم يكن له أي ذنب مما يحدث، وضعت يدي علي كتفيه أهدئه، ثم سألته: «من أين أنت يا علي».. ظهر التوتر علي فتي الأمن المركزي فجأة، وكأنه يخشى

أن يخبرني بموطنه، تلفت يميناً ويساراً كثيرا خشية أن يلاحظه أحد ثم تناول زجاجة مياه يرتشف بعض منه، قبل أن يقول: «من نزلة البلشة بمحافظة المنيا وعندي ٢١ سنه اقضي الخدمة العسكرية من سبتمبر ٢٠١٤ يعني باقيلي حوالي ٧ أشهر وهرجع البلد تاني.. وصدقني يا باشا أول ما هخلص هعاود البلد وأرجع للمحجر اللي كنت بشتغل فيه أكسر الحجر في الجبل».

غريبة هي تلك الدنيا، تجعل من البريء مجرم، ومن الطيب شرير، ومن المسكين طاغية، قل ما شئت من تلك الأوصاف، فستجدها تنطبق علي ذلك الفتي، يوما ما اعتقدنا أنه قاس القلب، ولكنه ها هو ذا يرتجف بمجرد أنه سمع تساؤلي العفوي، والكارثة إنني لم أرحم تلك الحالة التي أوجدته عليها، فرحت أتقمص شخصية ريهام سعيد وأسلوبها المُستفز مع ضحاياها: «إنت مش ندمان يا صغيري علي ما فعلت.. أصبت وقتلت بعض ممن ليس له ذنب».

هذه المرة لم تُصدر من الفتي رجفة، بل انتفاضة عنيفة جعلتني أظن أن ماسًا كهربيًا قد أصابه، فراح يستنكر قائلاً بصوت مرتعش: «يا باشا محدش سأل الناس دي شعورها إية لما أنا بقع علي الأرض.. إحنا كمان بيموت منا ناس ملهاش في الطور ولا في الطحين»، نهض فجأة «علي» ثم رفع صوته ينادي علي احد

زملائه قائلا «محمود تعالي خلي الباشا يشوف الإصابة اللي في بطنك.. خليه يعرف إننا إحنا اللي بنموت»، فرفع ذلك الفتي قميصه ليكشف عن إصابة طولية أسفل البطن نتيجة ألة حادة.

محمود.. جندي يقضي خدمته العسكرية، يلقبه زملائه بالفتي المرح، للأسف كما يقول «لا يعرف الكتابة أو القراءة»، جاء من مركز بيلة كفر الشيخ، يعمل نجار مسلح، وينفق علي والده وأمه وأخ وأخت صغيرة، رغم اختفاء معالم وجهه الأسمر من أثر الغبار ودخان الغاز والاشتباكات، لم تختفي تلك الإبتسامة الطيبة، وكما فعل «علي» استقبلني «محمود» ليعبر عن ما يقاسياه في هذه الأرض الغريبة، فقال لاهثاً: «الحمد لله يا باشا هروح بلدي الشهر اللي جاي وهستريح بقي وارجع اشتغل.. والله يا باشا أنا مليش دعوة بكل ده أنا راجل غلبان وفي حالي وعمري ما تسببت في ازية أي مخلوق خلقه ربنا.. تقوم الناس عاوزة تموتني بالسيف لولا ستر ربنا وعشان خاطر أبويا وأمي الغلابة».

اقتربت من محمود أدعوه ليستريح قليلاً من عناء ما يكابده منذ أن استيقظ هذا اليوم، وما أن هدأ قليلاً حتي بادرته قائلاً: «ولكنك يا محمود تقتلهم بالخرطوش والرصاص وتضربهم بالعصاية وهم يدافعوا عن أنفسهم بالطوب عاوزهم يعملوا إية»، هب محمود وقفا مرة ثانية، ثم راح يكشف عن بطنه للمرة الثانية

صارخًا: «ده طوب يا باشا.. ده سيف.. بقي في أيد كل البلطجيه دلوقتي.. وأنا في الأخر مليش دعوة.. أنا عبد المأمور هما جابونا هنا وحطونا أدام الناس ولما بيبدأوا الضرب بنحمى نفسنا».

الملاحظ أن ذلك الفتي عسكري الأمن المركزي، والذي يخشاه المتظاهرين كان يتحدث وهو يلهث من الخوف، وتشعر انه صادق في حديثه.. والأغرب انه شعر بمدي الصراعات النفسية التي تملكتني حول مدي المأساة التي يعيش فيها عسكري الأمن المركزي في مصر، فاقترب مني قائلاً بلهجة صعيدية هادئة: «شكلك مش مصدقني يا باشا.. طيب تعالي معايا وأنا هوريك شباب زى الورد في الاستراحة.. مشكلته بس انه ربنا خلقة فقير ومعرفش يتعلم عشان يبقي زي الناس اللي بتقولوا عليهم محترمين.. وعشان هو غلبان وجاهل لموه وحطوه في معسكرات الأمن المركزي يضرب في خلق الله».

قطعاً كانت دعوة محمود فرصة ذهبيه لم أكن لأفوتها لدخول استراحة عساكر الأمن المركزي خلف الجدار بشارع نوبار، فتقدمنا أنا محمود وعلي من شارع منصور وتجاوزنا جدار قامت القوات المسلحة ببنائه لعزل وزارة الداخلية عن المتظاهرين وخلف الجدار العازل صُعقت بمشهد لمئات من الجنود في لحظة استراحة، بعضهم جلس يحتسي الشاي، والبعض وقف يتحدث

ويحكي عن البطولات التي قام بها وهو ينفث دخان سيجارة، والبعض الثالث افترش الأرض يتناول بعض من الطعام الذي لم يخرج عن الفطائر وقطع الجبن والبصل والجرجير».

كقائد عسكري تقدم محمود فاردًا قامته حتي يبدو أطول قليلاً، ثم ضم قبضته ورفعها إلي السماء صارخًا، وبنفس لهجته الصعيدية: «أحسن وحوش الأمن المركزي.. ليهم ضربة تهز الأرض.. لا بيخافوا الظلام ولا بيحسوا بحرقة الشمس»، لم يكن ما فعله هو مبعث دهشتي، ولكنها رده الفعل التي قابلها جنود الأمن العسكري لصرخاته الحماسية، فقد تناسي الجميع أنهم يخلدون إلي استراحة قليلاً من عناء يوم دامي، هبوا فجأة علي أقدامهم، تركوا كل ما بأيديهم، كهدير رعد هبت من سماء مظلمة انطلقت قبضاتهم تضرب علي صدورهم بإيقاع منتظم، وبصوت صارخ رددوا «عاااااش جنودنا عاااااش».

حظي العثر لم يحالفني بالالتحاق كجندي يقضي الخدمة العسكرية، فرغم اختياري كضابط احتياط لإجادتي نوعًا للغة العبرية «يومها»، لكنهم تخيروا مجموعة ونحوني جانبًا، لا أعلم لماذا تذكرت هذا الأن، ولكن مشهد هؤلاء الفتيه جعلني أندب هذا الحظ بعد خمسة عشر عام، فما أشاهده من هؤلاء الجنود لا يمكن أن يأتي من فتية انتهوا توا من معركة شارك فيها بعض

من عتاة البلطجة، ويبدوا إنهم لاحظوا ما أصابني من صدمة ما فعلوا، فتقدم مني أحدهم مقدما لي كوبا من الشاي قائلاً بصوت مرح: «تفضل يا باشا كوباية شاي في الخمسينه تعدل المزاج».. فأجبته بصوت حاولت أن أجعله مازحًا: «بس الغاز اللي انتوا بتضربوه بيعمل أحسن مزاج.. وانتم لا تتأثرون بالغاز».

وكأنني أطلقت نكتة لا أدري أنها مُضحكة إلي هذا الحد، أو أنهم تصنعوا الضحك عله يطرق باب أفواههم التي تعودت البؤس، راحوا يضحكون ويضحكون، حتي تقدم أحدهم قائلاً: «الغاز ده أتعودنا عليه يا باشا.. لدرجة إني لما بروح بلدنا بحس إن دماغي فيها حاجة غلط.. وبحس إني لا أستطيع الحياة بدون الغاز، وبمجرد عودتي للمركز واشم رائحة اشعر إن حياتي تعود إلي.. تصدق بالله يا باشا أنا أمي لسه مكلماني دلوقتي وحلفت ليها علي المصحف إني بعيد عن الضرب عشان متخافش عليا... دي ممكن تموت لو عرفت.. تفتكر ربنا هيسامحني يا باشا عشان حلفت علي المصحف كذب؟».

كيف يمكن أن أجيبه علي هذا السؤال الصعب؟، هل يمكن أن يكون له إجابة حقيقية؟، هذا الفتي لا أدرك هل ألقي سؤالاً ليعرف إجابته؟ أم أنه فقط يلقي سؤالا استهجاني مما يتداول هنا وهناك؟، وأي شيخ أو قس أو حتي حاخامًا يمكن أن يجيبه علي مثل هذا

التساؤل؟، رغما عني أطلقت من صدري تنهيدة بدت مسموعة، فاستدركت قائلا بصوت هامس حاولت أن لا يخرج مسموعًا: «هذا بينك وبين الله يا فتي.. دعنا نحلم بمستقبل أفضل».

اقترب الفتي من أذني قائلا بصوت هامس وكأنه سيلقي سرًا لا يريد أن يسمعه أحد: «إحنا مبنحلمش يا باشا.. إحنا سيبنالكم الحلم.. إحنا بنتولد وبنعيش وبنموت ومفيش حلم بيتحقق.. ومفيش حد بيعرف عنا أي حاجة.. أتولدنا فقرا وعيشنا علي أد حالنا.. واتحرمنا من كل حاجة.. اتحرمنا من الفرحة واتحرمنا من العلم.. وعشان إحنا جهله بيجبونا هنا.. بيلمونا في صندوق المصفحة أو المدرعة ويحطونا أدام النار نضرب وننضرب.. ولو مات فينا واحد محدش بسال فينا».

هل تعتقدون أن العبقري «أندري تاركوفسكي» ملك الدراما الروسية يمكنه أن يُخرج كل هذا المشهد المأساوي كما فعل في رائعته «نزهة علي الطريق» منذ خمسة عقود، هل ترون أن «فيديريكو فليني» فلته الدراما الإيطالية أو حتي «أكيرا كيرو ساوا» فتي الدراما اليابانية، يمكنهما أن يتعاملا مع هذا المشهد الأسطوري، أظن أن أعظم مخرجي السينما العالمية سواء البريطاني «ألفريد هيتشكوك»، أو الإيطالي «بيير باولو بازوليني» أو حتي مبدعنا المصري «يوسف شاهين» لم يكن ليتمكن من صناعة مشهد هذا

الجندي الصغير بتلك الواقعية المأساوية، لا اعلم كيف تسمرت في مكاني هكذا، وكيف لم انتبه أنهم جميعًا تركوني بمفردي.

تلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن الجنود، ولكني لم أجد أي منهم، فقط بعض طلقات الخرطوش البعيدة، وصرخات البعض متأثرًا بجراحه، نفضت رأسي علني أخرج تلك الكلمات من هؤلاء الفتية، ولكنني فشلت، فقد أسرتني عبارتهم، احتل كياني صوتهم، كثيرًا ما رأيتهم مجرمين واليوم أراهم مجني عليهم، تحركت مغادرًا أرض المعركة بعيدًا عن رائحة الغاز الخانق بحثًا عن هواء نظيف.

نما إلي مسامعي جلبة تأتي من خلفي، فالتفت لأجد مجموعة من الجنود يحملون زميلهم الذي تدلت رأسه يسيل منها الدماء أنهارًا، فأسرعت الخطى نحوهم علهم يجدوا في شخصي خير مُعين، وما أن وصلت إليهم هالني أن رأيته جثة هامدة، عاش طويلاً يكذب علي أمه ويخبرها انه بعيد عن المعارك، واليوم مات دون أن يعلم هل سيسامحه الله علي تلك الكذبة البيضاء أم سيعاقبه عليها، مات دون أن أعلم اسمه أو أرضه..... هكذا بمنتهي البساطة مات غريبًا بعيدًا عن أرضة وموطنة.....

●●●

ثم أقمنا علي دولنا مأتمًا وعويلاَ

راقصات عصر التنوير

«وإنّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ.. فَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُمْ، ذَهَبُوا».. قديمًا علمونا في المدارس إن الأخلاق هي عماد الأمة، وأن فساد أخلاقنا حتمًا سيجعلنا أضحوكة عالم يسمو بصفاته، فرضوا علينا منهجًا حشوا به عقولنا بحُسن الآبياتِ، ونسوا أن يعلمونا سلوكًا نبني به أمةً تسمو علي الخلائق، لم نعد نفهم أن صلاح أمرنا للأخلاق مرجعهُ، فلم نقوّم النفس بالأخلاق حتي نستقيمَ، وعزمنا علي تقديم شرور ذهبت أخلاقهم، فصرنا قومِ أُصيبُ في أخلاقهم، قدمنا مفاتنهم للصغار قدوةٌ، ثم أقمنا علي دولنا مأتمًا وعويلاَ، وصدق شوقي بقصيدته، فقد كان في حُسن الأخلاق أميرًا.

●●●

مسقط رأسي داخل إحدي غرف دار نشر شهير، فتي صغير، لم يتجاوز عامه الأول في دنيا التأليف، يعيش تجربته الأولي مع عالم الناشرين، كثيرًا أدعي إنتماءًا لعالم المثقفين، أخذ يرمي ناظريه يمينًا ويسارًا، يقارن عنوان مؤلفه بعناوين مؤلفات مبعثرة حوله، فارتسمت علي وجهه ابتسامة شغف العاشقين، وانعكس

علي عيناه وهج نيران أتت من قاع مُظلم، لهفة وشوق لسماع تلك التي طالما حلم بها سنين.

«مؤلف ثري يتفق مع واقع أليم نتعايشه ليل نهار.. ولكن للأسف يا سيدي ليس له مكانًا في هذه الدار».. كصاعقة ضربت شجرة يافعة فاحترقت أوراقها، نزلت تلك العبارة علي رأس الفتي، لتخرجه من حُلم كان صرحًا من خيال فهوي، كجلمود صخر التصق بكرسيه، لم يجرؤ علي التفوه بكلمة، بين الفينه والأخري ينظر إلي مخطوطة مؤلفه حسرة، ثم يرنو إلي الرجل متسائلاً، من خلف مكتبه جلس مزهوًا بما أحدثه من تأثير قائلاً، «يا عزيزي ليس هذا زمن الكُتب».

«لو كانت رواية كان الناشرين خطفوها منك».. كشخص إرتكب جريمة أطرق رأسه خجلاً، بصوت خافت راح يردد ساخراً: «كيف فعلت تلك الفعلة الحمقاء، كيف أكتب كتاباً وليس رواية.. والأدهي أنه كتاباً علمياً وليس سياسياً كتلك التي تدعي معرفة ببواطن الأمور الإستراتيجية»، نهض الفتي مقدمًا اعتذاره للرجل علي تلك الفعلة الحمقاء، واعدا اياه بعدم تكرار تلك الفعلة الشائنة، بل أنه أقسم بأن لا تلمس أنامله قلم قط، ولكنه كالعادة حنث يمينه وعاد بعد اليوم إلي القلم كاتبا.

وقف الفتي يلملم أوراق مؤلفه نادمًا، في حين تجاهله صاحب الدار لمداعبة كلبه مدللاً، اقتحم الغرفة فجأة خادمه، معلنًا قدوم تلك الزائرة، لتدخل الغرفة أنثي أقل ما توصف بأنها فتاة ساحرة، ترتدي ما يكاد يستر جسد بض وافر الطلاوة واللمعان، تُظهر مفاتن عجزت معه حواس الرجل فإنطلق إليها مستقبلا، انحني علي يديها مقبلاً، وضع يمينه علي خسرها داعيًا اياها للجلوس، وقد نسي ذلك الفتي الذي ظن نفسه يومًا كاتبًا، جلست أمامه وقد وضعت ساقٍ فوق ساق، ليتجهم وجه الرجل محملقًا، صار أبلها فاغرًا فاه، فبادرته بصوت متميع قائله، «عندي ليك كتاب إنما إية متقولش يا ملك الثقافة»، فتهلل وجه الرجل وقد ظن إنه لعالم الكتب مثقفًا.

●●●

اكتظت صالة تحرير الصحيفة بمحرريها، فاليوم الاجتماع الإسبوعي، لذلك راح كل صحفي يُعد ورقة أفكاره، علّه يفوز بثقة رئيسه فيفرد له صفحة كاملة، أو أن ينال حظه العثر من عنوان في الصفحة الأولي، قطع همهماتهم دخول رجل ضخم، عريض المنكبين أصلع الرأس ذو كرش كاد يمزق قميصه المزركش، فأسرع البعض لاستقباله استقبال الفاتحين، في حين تفرغ البعض الأخر لمدحه قائلين، ما أجمل ما كتبت أناملـه.

اتسعت ابتسامة رئيس التحرير الخبيثة، بينما انتفخت أوداجه، كطاووس مختال جلس علي كرسي القيادة قائلاً، تلك مجرد كلمات كتبتها، انفرد بنفسي داخل مكتبي، وعلي أنغام السيدة أم كلثوم احتسي قهوتي، وبين أنفاس سيجارتي تخرج تلك الكلمات الرائعة، ثم اعتدل موجهًا حديثه لكل من في صالة التحرير، هيا أخبروني بأفكاركم علها تُحظى باعجابنا، فأسرع الجميع بطرح أفكاره، أملين أن تحوز أفكارهم موافقة.

أظهر رئيس التحرير تململاً، فقد مرت الساعة دون أن يسمع ما يرضيه، حتي رأها قادمة، فتاة صغيرة سافرة، كذبت حينما زعمت إنها محررة، ترتدي زيًا لا يليق بمجتمع الكاتبات، تتفوه ألفاظًا لا تنسجم مع عالم المثقفين، وان كانت تمتلك صفات لا تروق إلا لذلك الأصلع البدين، فأمر الجالس بجواره لينهض تاركًا مقعده لها، وقد عاد لمزاجه البائس رونقه، نسي أنه يعقد مع الجميع إجتماعًا، فراح يعدد مفاتن حسنها، ناولته أوراق أخر ما كتبت، فالتقطها قائلاً ما أبدعه.

«هيا لينصرف الجميع إلي عمله».. قالها الرجل لينهي إجتماع المحررين، ثم التفت إلي مساعده يناوله أوراق تلك الفتاة قائلاً بحماس غريب، احجز لهذا الملف صفحة كاملة، ولا تنسي أن تشير إليه في الصفحة الأولي، ثم أشار إلي الفتاة أن تتبعه قائلاً بصوت

هامس، هيا إلي مكتبي لتشرحي لي أمر ذاك الملف، ليقضي علي أمال من لو كان إلتفت إليهم لصُعق من هول ما سيري، ولتفوز بحق ما كانت لتنوله لولا وجود ذلك المسخ في بلاطها.

●●●

فقد عقله بمجرد أن نظر للعالم من أعلي المباني

خفافيش الظلام

شيء غامض يجري هنا، فداخل تلك القاعة جلس الجميع مشدوهًا، حملقوا بأعينهم حد الجحوظ إلي ذلك الوقور الذي جلس يخطب فيهم، وكأنهم لا يعرفونه، أو أنهم يستمعون إليه للمرة الأولي، فما يقوله الرجل جديد عليهم، حتي أن أحدهم وجد نفسه يميل علي أذن الجالس بجواره قائلاً: آلم تلاحظ أن سيادة الوزير أصبح يتحدث جيدًا، تنهيده ساخرة أخرجت الرجل من ذهوله، فقد جاءت الإجابة صادمة له، أنظر إلي الداهية التي تجلس بجواره لتعرف السبب.

علي يمين الوزير جلس ذلك الداهية، بين الفينه والأخري يدون علي ورقته بعض الكلمات، يناولها للوزير ليبدأ في مواجهة تلك الأسئلة بالردود التي تليق به، فهذا المسئول، ورغم قيامه بالعمل السياسي منذ عشرات السنين، فوجئ بقرار الحزب ترشيحه لخوض معركة الإنتخابات البرلمانية، وفي دائرة لم تطأ قدمه أرضها منذ عشرون عام مضت، وأمام شخص لديه من الشعبية الضخمة ما تمكنه من هزيمته، إلي أن هبط عليه هذا الداهية، ليقلب الطاولة رأسًا علي عقب، ويساعده بكل الوسائل، المشروعة منها وغير المشروعة، ليتمكن أخيرًا من انتزاع مقعده تحت قبة البرلمان.

محامي مغمور، يستوطن إحدي القري النائية، لا يمتلك سوي عقل داهية، مكنه هذا العقل من التسلق رويدًا رويدًا إلي كبري مكاتب القانون، باع شرفه، حنث بقسمه، حتي حاز ثقة الجميع، ولأنه من تلك الدائرة التي يحكمها ذلك المرشح البرلماني ذائع الصيت، عرضوا عليه مساعدة رجلهم الحزبي في حربه الإنتخابية، قرر أن يتولي إدارة الحملة الدعائية بنفسه، وفي الليلة التي أُعلن فيها عن فوز سيده في الإنتخابات، تم تعينه مديرًا لمكتبه، ومستشارًا قانونيًا وإعلاميًا أيضًا، وفي اليوم التالي عضوًا بارزًا في حزب سيادته.

في مساء يوم بارد، وقف ذلك المحامي داخل غرفته الفندقية الشاهقة، يراقب شوارع المحروسة من خلف زجاج النافذة، فقد عقله بمجرد أن نظر إلي مصر من فوق أعلي المباني، فأقسم أن يعيش دائمًا في أعلي المباني وآلا يعود إلي أسفل مرة أخري، حتي يستشعر ذلك الجمال الذي لا يراه كل من ينظر إليها من أسفل، حتي يبتعد عن الزحام والفقر والهواء الفاسد، وناس ماشية في الشوارع بتخبط في بعض أثر القهر.

مرت الأيام والشهور، والحال أصبح غير ذاك الحال، نسي الرجل أصول وظيفته، نسي أنه ذو مهنة يدافع بها عن كل مظلوم، أضحي ذو نفوذ بكلمة واحدة يتغير كل شيء، حتي والده في القرية،

أصبح له دورًا إجتماعيًا هو الأخر، فبعد أن كان مجرد أجير يعمل في أطيان أعيان البلد، أصبح وجيهًا يقصده أهل القرية لقضاء حوائجهم، وما يقدمه لم يكن لوجه الله، بل مدفوع الثمن مقدمًا، حتي حانت لحظة أصبح فيها خطرًا عليهم، خشوا أن يكبر ويهز عروش فسادهم، فأوجدوا له مكانًا لائقًا داخل سجونهم.

منذ ما يقرب من رُبع قرن مضي، وتحديدًا عام ١٩٩٥ ميلادية، قدم الكاتب والسيناريست وحيد حامد، واحدة من أجمل الأعمال السينمائية الواقعية، طيور الظلام، والذي من خلاله أوجد ربط بين الفساد والإرهاب، ومدي علاقته بالسياسة والثقافة والأدب، عملاً عده النقاد «نبوءة» لحال المجتمع المصري في الألفية الثالثة، فحق عليهم إهدائه لمخرج الواقعية الأول، عاطف الطيب.

كذبت اسرة الفيلم بكل نجومها حينما دونت في مقدمة ذلك العمل الرائع تلك العبارة المفروضة عليهم، «هذا الفيلم خيال سينمائي بحت.. وأي تشابه بين الخيال والواقع يكون مجرد صدفه»، فما نعايشه يومًا بعد يوم، يؤكد أن ما قدموه منذ رُبع قرن ما هو إلا واقع ملموس توغل في مجتمعنا كما يتوغل السوس في ساق عجزت عن الصمود طويلاً، ليس في مجتمع المحامين فقط، ولكن في كل مجتمعات أنصار الكلمة.

●●●

ذات يوم صيفي حار، وصل إلي القاهرة، فتي يبدو بسيطًا، ولكنه طموح، لم يكن ذكيًا، ولكنه يدرك ما يريد، طيلة أيامه الأولي لم يقل أي كلمة، ظل يراقب الجميع، يفهم طبائعهم، اعتمد كثيرًا علي شقيقه الذي كان يرأس منصبًا تنفيذيًا بتلك الصحيفة المستقلة، ما جعله يتعامل مع زملائه وكأنه شريك في كل ما يكتبون، فرغم أنه لم يقدم أي فكرة موضوعية طيلة ثلاثة أشهر كاملة، إلا أن أسمه لم ينقطع يومًا عن صفحات تلك الصحيفة.

مرت الأيام وهذا الفتي لا يتحدث مطلقًا، وإذا تحدث لا تفهم ما يقول، لم يستطع أبدًا تكوين جملة مفيدة، حتي بدء البعض يسخر منه، هنا قرر شقيقه أن يتدخل بنفسه، عقد اجتماع مع أحد الصحفيين الشباب، أبلغه أن يهتم بشقيقه قليلاً، وأنه أضطر لإحضاره من قريتهم بأحد محافظات الصعيد لأنه لم يجد أي عمل، وأنه يدرك جيدًا أن شقيقه لا يجيد أي من فنون العمل الصحفي، ولكنه ماهر في صناعة علاقات، وأنه قادر علي تنفيذ كل ما يُطلب منه جيدًا.

سنة ورا سنة، كبر الفتي، تمكن بواسطة شقيقه، وبقدراته الخاصة، والتي ليس لها علاقة بمعايير المهنة، أن يرتقي درجات وظيفية، أقول وظيفية، ليس اعتمادًا علي سوابق أعماله، فحتي اليوم، ورغم مرور أكثر من عشرة سنوات، لا تجد له قضية واحدة

يمكن أن يتذكر البعض اسمه بها، لم يتمكن من انتذاع جائزة صحفية، أو يتلقي دورة تدريبية، لا يعرف الفرق بين التحقيق التقرير والتحقيق الإستقصائي، وستتعجبون إذا عرفتوا أنه، وبمنتهي السهولة، يتولي منصب رئيس التحرير لإحدي الصحف.

●●●

«شايف العربية إللي هناك دي.. عندي كمان واحدة.. ده غير حتة الأرض اللي اشتريتها في البلد.. والشقة الواسعة إللي في العجوزة.. يا ابني انت ماسك منجم دهب.. متخسروش».. كلمات صادمة أطلقها الصحفي العجوز، والذي لقبه زملاؤه المتابعون لتلك الوزارة الإقتصادية، بـ«الجنرال»، علي مسامع ذلك الشاب، في محاولة منه لإغراؤه، وإثناءه عن استكمال حملته ضد الفساد داخل إحدي هيئات تلك الوزارة.

لم يفهم الشاب في بادئ الأمر، من أين لذلك الجنرال بتلك الثروة، وهو مازال يُصر علي أنه جاء من قريته لا يملك حق إيجار شقة عادية، حتي اضطرته الظروف المعيشية لإستئجار غرفة في بدروم أحد العقارات الآيلة للسقوط في مدينة دار السلام، غير أنه أدرك الحقيقة بمجرد أن عرف أن ذلك الجنرال يعمل مستشارًا إعلاميًا لتلك الوزارة الإقتصادية، وفي نفس الوقت يقوم بالتغطية اليومية لنفس الوزارة في صحيفته القومية.

وكأنه سعد باشا زغلول، أو مصطفي بك كامل، أو حتي محمد أفندي أبو سويلم، أو أي من أصحاب تلك الشعارات البائدة، أولئك الذين وارت جثامينهم التراب، وقف الشاب أمام ذلك الجنرال يتحدث عن الأخلاق والمبادئ التي لا تتجزأ، والشعب الذي من حقه أن يعرف الحقيقة، لم يبالي عجوز المهنة بما يقول الفتي، بل نصحه أن يفعل مثلما فعل منذ سنوات، وأن عليه أن يتخلص من تلك المبادئ الضارة جدًا بالصحة.

ذات يوم، جاءت لذلك الشاب الطموح دعوة لحضور إحدي الفاعليات، سيحضرها ضيف في غاية الأهمية، وداخل قاعة الإجتماعات جلس نفس الجنرال بجواره، يذكره بأمر ذلك العرض، حاملاً معه جائزة لا تأتي إلا لمُستغلي الفرص، فقد قرر مسئول الوزارة الكريم أن يؤسس صحيفة إخبارية، وأنه لم يجد أمهر من ذلك الشاب ليتولي أمرها، علي بُعد خطوات جلس ذلك المسئول، واضعًا ساقًا فوق ساق، يرسم علي وجهه إبتسامة صفراء، وكأنه حقق هدفًا طالما حلم به.

لم تنتهي القصة بعد، مازال هناك الكثير، فصاحبة الجلالة تمتلئ بمثل هؤلاء المستشارين، البعض منهم وصولي متسلق، فاقدًا للمهنية، والبعض الأخر غلبه الطموح، فباع من أجله مبادئه وأخلاقه.

●●●

السر الذي فتح أبواب الجحيم في الستينات

أبواب الجحيم

أةةةةةةةة».. صرخة دائمًا ما تدوي داخل المعتقلات، قد يكون صاحبها متشدد أو متطرف أو حتي في سنة أولي إرهاب، كورباج ورا كورباج، شحنة كهرباء أو نار السيجار علي الجسد تنطفي، ومع كل نقطة دم تسيل علي أرض الزنازين، يكبر الإرهابي النونو ويصبح خليفة جماعة من المعذبين، ليخرج من السجون وينتقم من المجتمع، بل من الإنسانية التي فقدوها، أو أُجبر علي فقدها داخل السجون.

●●●

انطلقت صرخة مدوية داخل المنزل الطيني، لتخترق جدار الصمت الذي ساد القرية العراقية الفقيرة التابعة لمحافظة «ديالي»، والمتأخمة للحدود الإيرانية، صرخة أم تدفع ألمًا وليدها ليخرج إلي الهواء الطلق، التفت حولها نساء قريتها يشمرن عن سواعدهن لمساعدتها في دفع وليدها للحياة، يصل إلي مسامعهن زفرات زوج يقطع الغرفة إيابًا وذهابًا، لا يعلمن هل قلقًا علي زوجته أم شوقًا للقاء طفلة.

تهللت أسارير الزوج فرحاً عندما سمع بأذنيه صراخ طفل، دمعت عينية، وراح يقفز مهللاً "لقد أصبح عواد أبًا.. لقد أصبح عواد أبًا".. لم يشعر الرجل بأصدقائه وبأهل قريته وهم يهنئونه، كانت كل حواسه هناك، داخل الغرفة مع وليده وزوجته، كان يردد هامسًا: "لقد جاء يا حبيبتي.. إبننا جاء.. سيكون خليلي في هذه الدنيا.. نعم سأسميه إبراهيم.. إبراهيم عواد إبراهيم علي البدري السامرائي.

●●●

"داخل إحدي الغرف السكنية النائية بمحافظة الأنبار وتحديدًا في مدينة الفلوجة، جلس البغدادي يطالع كتابًا دينيًا لأحد فقهاء الإسلام السياسي، لقد أصبح شابًا لم يتجاوز الثانية والثلاثون بعد، قمحي البشرة ذو عيون ثاقبة سوداء وجبهة عريضة، يرتدي جلباب ابيض قصير وسروال من نفس اللون، كان يقرأ صفحات كتابه بتركيز عجيب، غير عابئ بالإضاءة الخافتة والنوافذ المغلقة، بين الفينة والأخرى يرفع يديه ليعدل من نظارته الطبية، أو ليمسح علي لحيته السوداء التي أطلقها منذ سنين عددا.

وبينما هو منهمكًا في القراءة، انتفض فزعًا عقب سماع جلبة خارج غرفته، فقد علم المارينز أخيرًا مخبئه، وتحاصره شرذمة منهم للقبض عليه، نظر البغدادي إلي سلاحه، حاول أن يقاوم إلا أن ضربة قويه أفقدته الوعي ليسقط بين العشرات كجلمود صخر.

"أنت.. قم.. اصحي".. كلمات عربية بلكنة ركيكة يبدوا أن صاحبها لا يتحدث لغتها، خُيل لـ"البغدادي" أنها مجرد كلمات يسمع صداها في أحد كوابيسه، والتي لم تفارقه منذ أن انشق عن تنظيم القاعدة، وقرر أن يحمل السلاح لمقاومة الأمريكان، عنف ما تلقاه جسده من ضربات جعلته يدرك أن ما يسمعه ويشعر به ليس حُلمًا، بل واقع أشد قسوة من كل كوابيس الأرض، حاول أن يفتح عينيه، لم يطاوعه جفنية، حاول أن يقف، ولكنه فشل، فقد كبلوا يديه وعصبوا عينيه، فتمتم بصوت واهن، كيف أنهض؟.

شعر البغدادي بيد أحد الجنود تفك وثاق قدميه، وبيد أخر تزيح عصابة عينيه، ثم امتدت اليد الأولي لتساعده علي النهوض، للوهلة الأولي أدرك أين هو، إنه داخل إحدي مدرعات الجيش الأمريكي تقف أمام واحده من أسوأ السجون الأمريكية سمعة في بلدة الكرمة، إنه سجن "بوكا" الممتد الأطراف على امتداد الحدود الكويتية، والذي يضم بعضًا من أكثر متطرفي العراق، بل والإقليم كله.

"هيا انزل من السيارة".. نفس الصوت الركيك عاد ليدفعه بهراوة غليظة من جديد، اضطر البغدادي تحت تأثيرها للنزول من السيارة العسكرية، وأخذ يسير ببطء في طريقه إلى السجن، فقد فكوا وثاقه ولكنهم تركوه مكبلا بالسلاسل الحديدية والأغلال، يقوده ثلاثة من المارينز إلي ساحة واسعة تطل عليها

ثلاثة مباني ذات إضاءة ساطعة، ثم إلى متاهة من الأروقة تنفتح على باحة بها رجال وقفوا يحملقون فيه بحذر، يلتحفون زيًا ذا لون أصفر زاهي.

دخل أبو بكر البغدادي معسكر بوكا شابا يبلغ من العمر ٣٢ عامًا، وأصبح اليوم الزعيم والخليفة لتنظيم داعش الإرهابي في سوريا والعراق، بعد أن قضي ما يقرب من ثلاثة سنوات داخل إحدي زنازين سجن بوكا، ذلك السجن الذي وجد فيه ضالته، من معتقل يرغب في الإنتقام، إلي متطرف يسعى للتدريب الفكري والأيديولوجي، لإرهابي نونو يريد أن يتوحش، ومع الوقت يتحول إلي زعيم من المتوحشين.

●●●

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمة الله».. أنهي الشيخ جابر صلاة العصر فردد خلفه المُصلين ما قال، لم يكن بالمسجد سوي بضع لا يزيد عن تسعة من الرجال، لم يكن مسجداً بل زاوية صغيرة من الطين اللبن، كتلك التي تنتشر في قري مدينة بلطيم في منتصف ستينيات القرن الماضي، يتسلل من نافذتها الوحيدة هواء بحيرة البرلس الصيفي، ما خلق سكينة روحانية بين المُصلين.

في أحد أركان المسجد انزوي أحدهم بجلبابه الأبيض ولحيته السوداء يردد بعض الأدعية، من فرط خشوعه لم يشعر بمن يقترب منه، رجل عظيم الجثة، أسمر البشرة، حليق الرأس، كث اللحية، وضع كفه الغليظ علي كتفيه قائلاً: أراك لا تترك صلاة معنا، وكأنك منذ اليوم واحدًا منا، كرجل عسكري إرتابه، لم يدرك في بادئ الأمر مقصده، لكنه فطن إلي مأربه، حينما ردد بابتسامة صفراء، كُن معنا، وقبل أن ينسلخ النهار من الليل، هرع الرجل إلي القاهرة، وهناك التقي قائدة ليبلغه سرًا بأمر ذاك الذي يريد تجنيده، ففُتحت أبواب جهنم.

●●●

أضحي ركاب المترو وكأنهم أشجار ساكنة في الغابة الموحشة

الذئب ذو الحذاء البشري

(نهار داخلي– إحدى عربات مترو أنفاق القاهرة).. دقت ساعة القاهرة الثانية ونصف ظهرًا، حان الآن موعدنا اليومي مع ساعة الذروة، أضحت شوارع وطرقات المدينة الموحشة مزدحمة بسيارات البعض، في حين تكدس البعض الأخر داخل محطة للأنفاق بحثًا عن مكان في عربة مترو، وقفوا جميعًا كجلمود صخر لا يتحرك قيد أنملة، فقط أصوات أنفاسهم اللاهثة بفعل جو خانق يفتقد إلي منفس هواء جعلتهم أشبه ما يكون بالأحياء.

مشهد المحطة الصامت، درجة الرطوبة الخانقة، سيمفونية الشهيق والزفير المضطربة، صعود وهبوط صدورهم، صوت آلة التنبيه التي انطلقت إذانا باقتراب القطار، جميعها عوامل ساهمت في رسم لوحه بائسة من الصمت، حالة من السكوت يسودُهُ قلق وحُزن خيمت علي رؤوسهم، غير عابئين بتلك التي تدفع بجسدها الضئيل محاولة اختراق الصفوف لتقترب من الرصيف، بين الفينة والأخرى تلتفت لتلقي نظرة ذائغة مشوشة، كانت كمن يبحث عن شخص ما، أو شيء ما يطاردها.

لم تُثير قسمات وجه الفتاه المُلتاع أي من المحيطين بها، لم ينتبهوا إلي حالة الاضطراب التي سادت كل جزء من أجزائها، لم يلتفتوا إلي ارتعاش أطرافها، إلي العرق الذي سال أنهاراً علي وجنتيها، فقط، أبدي بعضهم امتعاضا مكتومًا لإصرارها علي تجاوزهم للحاق بالقطار الذي بدأ صوته يقترب رويدًا رويدا، وما أن حط رحاله، وفُتحت أبوابه، اندفعت بكل ما بقي لديها من قوه لتلقي بجسدها داخل إحدى عرباته، وما أن أغلق المترو أبوابه، وبدأ في التحرك حتي تنهدت بصوت بدا مسموعًا للجميع، فأطرقت رأسها بهدوء خجل، فجأة أطلقت شهقة مكتومة، انتفض جسدها الضئيل رعبًا، جحظت عيناها هلعًا وهي تنظر إلي ذلك الحذاء الذي تعرفه جيدًا، حذاء الشخص الذي اعتقدت إنها أفلتت منه منذ قليل.

لم تجرؤ الفتاة علي الحركة، لم ترفع رأسها المطأطئ، بدت وكأنها تمثال من الشمع، راقبت ذاك الحذاء بعين دامعة، كانت تخشي أن تفقد أثره، خُيل إليها للحظة أنها تقف وحيده لا يُحيط بها أحد، أضحي ركاب المترو وكأنهم أشجار ساكنة في الغابة الموحشة، أو كتلال مُصمتة في صحراء قاحلة، لا تري جانبها سوي ذاك الكائن مجهول الهوية ذو الحذاء البشري، انتبهت الفتاة إلي اختفاء الحذاء، لم يعد له وجود، رفعت رأسها بحثًا عنه، لم تجد له أثر، أصابع انتهكت حرمة جسدها دلتها عليه، صاحب الحذاء يقف خلفها.

«يا حيوان».. صرخة هادرة انتزعت بها الفتاة نفسها، ثم دارت في سرعة ورشاقة، وعلي طريقة أسطورة الكاتب نبيل فاروق، رجل المستحيل، أطلقت لكمة مدويه أصابت فك ذلك الذئب، لكمة بدت أشبه بقنبلة انفجرت داخل المترو، و"كلمة مترو لو حاولنا إزالتها لانهد بناء المشهد".. هكذا عبر الشاعر أحمد الدوسري في كتابه النقدي "أمل دنقل: شاعر على خطوط النار"، واصفًا إحدى مشاهد "دنقل" داخل إحدى عربات المترو، حيث للكلمة دلالتها المكانية المؤثرة علي المشهد، فكيف امتلك ذو الحذاء جرأة التحرش في المترو، وسط حصار الركاب الواقفين من شدة الازدحام.

"ما تخليش- القصة- تموت".. كنت قد قرأت شيئاً عن هذا الهاشتاج الذي أطلقته بعض الفتيات للتصدي لطاعون التحرش في بر مصر، سخرت كثيرا من ضحايا ألزمن أنفسهن الصمت، فكيف لهن أن يتركن ما وصفته تلك الفتاه حيوانًا حرًا طليقًا بلا عقاب، كيف تجاهلن إساءة أقل ما توصف بأنها حقيرة، ومن شخص أكثر ما يمكن أن نصفه إنه ذكر يفتقد اسمي معاني الرجولة، لكن ما حدث داخل عربة المترو عقب ضرب ذو الحذاء علي وجهه، جعلني أدرك أن مأساة أخرى تولد عقب كل حادث.

"خلاص يا بنتي متفرجيش عليكي الناس.. لبسك غير المحتشم هو السبب.. إنتي لازم تكوني شجعتيه علي كده.. عاوزة

تروحـي القسـم وتفضحـي أهلـك وسـيرتك تبقـي علـي كل لسـان".. تخيلوا أن تلك العبارات المُحبطة يمكن أن تسمعها من إناس لضحية تعرضت للتحرش، ورغم إنهم شاهدوا بأم أعينهم ما يفعله ذو الحذاء البشري تراهم يأخذون صفه، والكارثة أن أكثر قائليها من الفتيات والنساء، حينًا تعاطفًا معها، وأحيانًا انتقامًا من مجتمع رفض يومًا مناصرتهن، أما المتحرش فعلي رأي الست أم كلثوم "يا روحي علية" يقف كأسد منتشي، انتهي لتوه من افتراس ضحية بنجاح منقطع النظير، انتفخت أوداجه فخرا بصنيع يديه، تاركًا أمة لا إله إلا الله تدافع عنه.

●●●

اشرب السُم فالدواء لم يعد موجودًا

الدواء فيه سُم قاتل

بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في أرض غير الأرض، وفي زمان غير هذا الزمان، استاء حاكم البلاد من أمر الرعية، فانعزل عن الجميع وأغلق علي نفسه بابًا، وراح يقرأ تجارب الأولين، بحث بين الصفحات عن حل لإصلاح حال أمته، وحينما عجز، اجتمع بالحكماء وأصحاب الشورى، ليطلب منهم المشورة، وفي بهو القصر، وأمام جميع الحشد، صرخ قائلا: بلادنا لازم تقوم، شعبنا يستحق إنه يعيد من تاني عصر الأجداد، حان الوقت لأمتنا إنها تنول حظها من الرقي والتقدم.

"وجدتها.. وجدتها".. شق سكون بهو القصر فجأة صراخ الحاكم، كطفل صغير راح يقفز مصفقًا ومهللاً، لم يجرؤ أي من رجال حكمه علي التلفظ بأي كلمة، فقط تابعوه في صمت حذر، هدأت ثورة الحاكم فجأة كما بدأت فجأة، فقد فطن إلي وقوفه بين قيادات رعيته، فعاد إلي عرشه مطأطئ الرأس خجلاً، جلس فاردًا حرملته الخضراء علي كتفيه، ثم أشار إليهم وكأنه سُيلقي بيانًا عسكريًا.

"ائتوني بخيرة شباب عقول الأمة، سنرسلهم إلي بلاد الغرب للدراسة، ليعودوا إلينا مُحملين بأفكار تعود علينا بالنفع".. تلك كانت قرارات الحاكم، فأسرع رجال قصره بالبحث في طول البلاد وعرضها، حتي استقر رأيهم علي سبعة من العقول المُضيئة، فأنعم عليهم الحاكم بعطاياه، فكانوا أول من يحمل لقب سفير بين بني جلدتهم، وخارج وطنهم شاهدوا ما لم يكن يخطر لهم علي بال، فأصابتهم النداهة كما تقول الأساطير.

تنقل الشباب السبعة بين كبري العواصم الغربية، من باريس إلي لندن إلي برلين إلي روما، ثم عبروا المحيط إلي نيويورك، ماذا يمكن أن يفعل الانتقال من بلد متخلف إلي أضواء المدينة العالمية، غير أنها جذبت ألبابهم بمفاتنها وأشياءها الجميلة الرخيصة، لينغمسوا في لهو وملذات، انغماس جعلهم ينسون الهدف الذي من أجله قاموا بتلك الرحلة، قصروا في تحصيل العلم، فشلوا في تحقيق أي نتيجة، وعندما عادوا إلى وطنهم، قرر الحاكم إعدامهم، فقد أرسلهم في مهمة محددة، ولكنهم نسوها، وانغمسوا في شيء آخر.

في اليوم التالي لعودة الطلاب السبعة إلي وطنهم أقام الحاكم حفلاً كبيرًا، وفي الحفل راح يسأل كل واحد منهم عن دراسته، وكيف سيُساهم به في نهضة البلاد، فقال أحدهم أنا

تعلمتُ اللغات الأجنبية، وقال آخر أما أنا فتعلمت فنون التشكيل والرسم، وقال ثالث مُبتهجًا أنا تعلمتُ الموسيقى، وقال آخر وأنا تعلمت فنون الإتيكيت والتعامل الراقي، لمْ يجد الإمبراطور في هذه العلوم ما يُمكن أن يُساهم في نهضة بلاده، فسألهم عن فائدة هذهِ العلوم، ومدى حاجة بلادهم لها، ولكنه لم يجد الجواب الشافي منهم، فأصدر قرارًا يقضي بإعدامهم جميعًا، وقبل أن ينتهي الحفل، كانت دمائهم تغطي القاعة التي أُقيمت للترحيب بهم، وقام الحاكم بعدها بإرسال بعثات أخرى ليتعلموا علوماً بشرط أنها تفيد بلاد الشمس المُشرقة.

حقاً لا أعلم من أين جاءت تلك القصة، وهل هي قصة واقعية، أم مجرد أسطورة يتناقلها الشعب الياباني عن بدايات نهضته في عهد الإمبراطور ميجي، الإمبراطور الـ١٢٢ لدولة اليابان التقليدية، فطبقا للرواية سالفة الذكر جاءت تلك القرارات ببدء النهضة اليابانية في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدا في العقد الثاني لحكمه الذي امتد لستة عقود، لتبدأ اليابان في صناعة دولتها الحديثة بعد دولة مصر محمد علي بأكثر من سبعون عامًا.

●●●

(نهار خارجي- أمام مكتب شكاوى الأدوية).. شجار وسباب، عويل نسوة ونحيب أطفال، رجال يدفع بعضهم البعض، وشيوخ رافعين أيديهم إلي السماء داعين المولي أن يرفع مقته وغضبه عنهم.

علي غير عادتي، وقفت علي كورنيش النيل أنظر بعيون فزعة إلي ذلك المشهد المؤلم، فقد احتشد بضع المئات أمام مكتب الشكاوى باحثين عن الدواء، توافد أغلبهم قبل أن تشرق شمس هذا اليوم، بل أن بعضهم اضطر ليبيت ليلته ليحجز موطئ قدم في طابور لا ينتهي، فشكل ذلك الحشد ازدحامًا كاد أن يقطع نهر الطريق، ليُشكل طابور أخر من السيارات أُجبر علي الوقوف.

أعترف إنني لم أكن أنتوي الانضمام إليهم حتي لعمل تحقيق صحفي عن آلامهم، فقد بُح صوتنا كثيرًا ولا حياة لمن تنادي، أنين أمي وصراخها تلك الليلة أجبرني علي المجيء بحثًا عن حتي شريط دواء، بأقدام مرتجفة تقدمت من ذلك الحشد، لا أعلم ماذا أفعل وقد التفوا حول المكتب التفاف السوار حول المعصم،لم يتركوا منفذًا واحدًا يمكنني من التواصل مع أي من مسئوليه.

"كلنا مش لاقين دواء يا بني.. وبنلف كعب دائر من صباحية ربنا علي شريط واحد".. لا أعلم كيف لم ألمح تلك العجوز الجالسة علي صخرة شاردة، ولماذا وجهت لي تلك الكلمات، ومن

أيـن لهـا أن تعلـم إننـي أسـعي لتخطـي الجميـع، كلماتهـا جعلتنـي اشـعر بشـيء مـن الخجـل، فـإذا كانـت أمـي تئـن ألمـاً مـن أجـل الـدواء، فهنـاك الملايـين أيضًـا يحلمـون بـه، فأطرقـت برأسـي أرضًـا، وأطلقـت العنـان لابتسـامة هادئـة، ثـم اقتربـت منهـا أشـاركها عزلتهـا بعيـدًا عـن مشـاحنه شـجار يبـدوا إنـه لـن ينتهـي أبـدًا.

فوزيـة جمـال، ذلـك أسـمها، لـم تتجـاوز الخامسـة والأربعـين مـن عمرهـا، حفـر الزمـن قسـوته علـي قسـمات وجههـا، فجعلهـا تبـدوا وكأنهـا عجـوز تجـاوز السـتين، بشـرتها السـمراء منحتهـا طيبـة أهلنـا الأولـين، اضطـرت للسـفر مـن قريتهـا الصغيـرة بمحافظـة القليوبيـة والحضـور إلـي القاهـرة مبكـرا للوقـوف في طابـور لا ينتهـي بحثـاً عـن ذاك الـدواء، لـم أتحـدث معهـا، فقـط أطلقـت لهـا العنـان لتشـكي همومهـا، تحدثـت عـن عذابـات زوجهـا المريـض، وكيـف إنهـا اضطـرت لتركـة بمفـرده منـذ فجـر هـذا اليـوم، مُتجاهلـه أطفالهـا الصغـار، لتُحضـر لـه دواءً اختفـي منـذ أمـد بعيـد.

●●●

(نهار داخلي- إحدي منازل وسط القاهرة).. هدأت السماء بعد يوم عاصف، ألقت الشمس أشعتها في هذا الصباح، عمت السكينة أرجاء المدينة، وخلت شوارع الحي العريق بشرق العاصمة من الناس، لم يعد هناك صوت يعلو فوق صوت طيور خرجت رغم برودة نهاية الخريف تبحث عن الطعام لصغارها...

داخل إحدي شقق البنايات الشاهقة المُطلة علي الشارع الرئيسي، انطلق المنبه كطلقة نارية يشق فراغ الغرفة، وعلي غير العادة، ودون أن تمتد يد النائم علي الفراش لتطرح ذلك المُزعج أرضًا، تململ الرجل نافضاً عنه إجهاد ليلة اضطر لقضائها أمام الراديو متابعًا لثورة الجزائريين ضد المحتل الفرنسي، والتي انقضي علي اشتعالها أيام قليلة.

أزاح الرجل الغطاء عن جسده الضئيل، جلس علي حافة الفراش، استند براحتيه علي ركبتيه، أثقل النُعاس جفنيه، فراح يبحث بأطراف أصابع قدميه عن حذائه، وما أن وجده حتي نهض يتلمس طريقه وسط ظلام فرضه عصيان جفنيه الراغبان في العودة إلي الفراش، سار ببطء حتي وصل أخيرًا إلي باب دورة المياه، ودون أن يفتح عينيه راح يغسل وجهه بالماء البارد، ثم التقط منشفته وأخذ يجفف وجهه بعناية، رويدًا رويدًا بدأ في فتح عينيه، حتي اعتادت علي ضوء شمس تسللت أشعتها من نوافذ منزله.

جلس الرجل علي أريكته يحتسي قهوة الصباح كعادته، بين يديه إحدي الصحف يطالع ما بها من عناوين، علّه يخرج بقصة، دون ملل راح يتنقل بين الصفحات بحثًا عنه، إلي أن وجده أخيرًا، بريق عينيه وارتعاش يديه ينبئان بذلك، فما يراه يحمل في طياته قصة مثيرة، رغم أنه مجرد خبر صغير لا يحمل من تفاصيل أو معلومات يمكنها أن تدل سيناريستيًا ومخرجًا عظيمًا مثله، ولكنها علي الأقل حملت له طرف خيط ستجعله يخط بيده واحده من أهم أعمال السينما المصرية التي خرجت في منتصف خمسينيات القرن العشرين.

"من حكمدار بوليس العاصمة إلى أحمد إبراهيم القاطن بدير النحاس... لا تشرب الدواء الذي أرسلت ابنتك في طلبه... الدواء فيه سم قاتل... الدواء فيه سم قاتل... عند سماعك هذه النشرة بلغ الحكمدارية، وعلى من يعرف أحمد إبراهيم المذكور المبادرة بتحذيره، إذا كان قريبًا منه، أو إخطار الحكمدارية فورًا"

هل تذكرون تلك العبارات الشهيرة التي تكررت علي لسان أحدهم في واحدة من أروع قصص خمسينيات السينما المصرية، كانت تلك هي الحادثة التي جذبت انتباه السناريست كمال الشيخ، وشكل حولها فكرة لينقلها إلى الكاتب الراحل على الزرقانى الذي نسج من الفكرة قصة، ثم عاد كمال الشيخ ليُصيغ لها السيناريو والحوار،

وبدأ مشاوراته مع المنتجين حتى تحمست الراحلة آسيا للعمل، وبدأ تصوير الفيلم، ليشهد ديسمبر ١٩٥٤ ميلاد "حياة أو موت".

لم يكن "حياة أو موت" مجرد فيلمًا سينمائيًا، ولكنه كان حالة تكشف لنا بعد واحد وستون عام، كيف كان المواطن المصري يعيش إنسانًا في وطنه، يكفي أنه أجبر العالم المحتشد في مهرجان كان السينمائي علي الوقوف احترامًا وانبهارًا لتحرك الشرطة المصرية وإنقاذها لـ"المواطن أحمد إبراهيم"، التهبت أيدي نجوم هوليود وبوليود وكبار النقاد بالتصفيق تحية للإنسان المصري الذي يدرك قيمة الحياة، ولإنسانية رجال الشرطة الذين قرروا أن يسخروا كل طاقاتهم لإنقاذ مواطن بسيط.

دعونا نعترف أن الحديث عن "حياة أو موت" اليوم أضحي شيئاً في غاية الأهمية، ففي كل شارع وكل حارة في بلادنا الآلاف من هذا المواطن "أحمد إبراهيم"، هذا المواطن لم يعد قادراً علي شراء الدواء، وحتي إن امتلك ثمنه، فالدواء نفسه لم يعد موجوداً، ولم يكلف حكمدار العاصمة، أو أي حكمدارية في ربوع الجمهورية، أنفسهم عبء السعي لإنقاذ أرواحهم، فأضحي النداء الذي كان منذ ستون عاماً أيقونة الاهتمام بالمواطن يخرج بهذا الشكل، "من حكمدار بوليس العاصمة إلى أي أحمد إبراهيم في أي حته.. اشرب السُم فالدواء لم يعد موجوداً.. عند سماعك هذه النشرة

أبلـغ الحكمداريـة لتوفـر لـك مكانـاً في مقابـر الصدقـة، وعلـى مـن يعـرف هـذا الأحمـد إبراهيـم المذكور المبـادرة بنصحـه، إذا كان قريبـاً منـه، أو إخطـار الحكمداريـة فـورًا لتقـوم بالـلازم نيابـة عنـه".

●●●

"الإرادة هي الفكرة، والعزيمة هي الروح"

الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور

سيف المُعيق

مسقط رأسي داخل إحدي غرف كلية التربية الرياضية، مراهق صغير، لم يتجاوز السابعة عشر بعد، رغم حداثته يتخيل من يراه أنه رياضي عتيق، عريض المنكبين، مفتول العضلات، قوي الشكيمة، يقف بكل قوة واعتداد متباهيا بقوته، عيناه الخاويتان انعكس فيهما وهيج نيران أتت من قاع عميق، لهفة وشوق لالتحاقه بالكلية التي حلم بها سنين عددا.

"مستحيل نقبل ورقك.. إنت كده كده هتسقط في اختبارات الجري".. لطمة قاسية من إلة البيروقراطية عند المصريين أعادت الفتي الحالم إلي وعيه، إنسان قعيد، لا أعلم لماذا لم أهتم بتلك الملاحظة التي يراها البعض ليس لها قيمة، لكنني تذكرت أن هذا البعض لا يمت لمجتمعاتنا المريضة بأي صلة.

استدار الفتي بكرسيه المتحرك ليغادر الغرفة مطأطئ الرأس، أرخى عينيه السوداوين إلى الأرض، أمسك عن الكلام، سيطر الحزن على قسمات وجهه الشاحب، أضحي عجوزًا وليس فتي صغير، ليس ذنبه أنه قعيدًا لم تطأ قدمه أرض في حياته، لماذا يحرمونه من حُلم سيطر عليه منذ أن ولد، لماذا يرفضون منحه

فرصة أن يفي بعهده الذي قطعة علي نفسه، أن يثبت لقرنائه وأهل وجيعته أن الإعاقة ليست إعاقة جسد، ولكنها إعاقة إرادة وإصرار وتحدي، واليوم اكتشف للإعاقة توصيف رابع أصاب هذه البلد، إعاقة الفكر.

قد تعتقدون أن هذا المشهد من وحي خيال المؤلف كما قد يظن البعض، ولكنه كالعادة ظن من النوع الأثيم، لقد شب الفتي وأصبح رجلاً يافعاً يرفع اسم مصر عالياً، منذ سنوات حكم عليه إله البيروقراطية بالعجز، وأنه من المستحيل أن يُصبح بطلاً رياضياً، ولكنه اليوم يمكنه أن يصفع هذا الكائن علي خديه، فقد أضحي اليوم بطلاً أولمبياً، يحصل لبلاده علي إحدي الميداليات الأوليمبية.

●●●

اكتظ رصيف محطة قطار محافظة المنيا بإناس يودعون أبنائهم المهاجرون إلي مصر، لم يكن علي الرصيف موطئ قدم، الجميع ينتظر تحرك القطار بالباحثين عن "لقمة عيش" في محروسة قاهرة المُعز، فجأة وقبل أن يتحرك القطار، انطلق شاب وسط حشد من الناس محاولاً اختراق الصفوف للحاق به، لم يبالي بإعاقة قدميه، قاتل كثيرًا من أجل الوصول إلي القطار، يدفعه البعض من الخلف بحثًا عن منفذ يجعله يتقدم ناحية أي من أبوابه، حتي نجح أخيرًا.

داخل العربة لم يجد الشاب مقعدًا للجلوس عليه، وكالعادة لم يرحم إعاقته أحد، لم تُجدي توسلات تنهيداته اللاهثة، ولا حتي عرق وجنتيه، فأشاح الجميع بوجوههم مستسلمين لنوم عميق، أو هكذا تظاهروا، فأطرق الفتي رأسه وانتحي ركنًا وجلس القرفصاء دافنًا رأسه بين ما بقي من ساقيه العاجزتين، متأسيًا علي حالة، وحياته التي يحياها في مجتمع لا يرحم، ولم يدعه يعيش كما يُحب.

وكأنها الكوابيس، راحت الذكريات والأحداث المؤلمة تهاجمه، تعبيرات وجهه واضطراب واحمرار عينية تنبئان بذلك، تذكر كيف عاني بإعاقته تلك طيلة حياته، تذكر كيف كان يعامله الجميع في الجامعة، وعندما تخرج من كليته واعتقد أن الدنيا قد تبتسم له، خذلته تلك الدنيا وأدارت وجهها، بل وأصابته بصدمة نزلت علي رأسه كالصاعقة، صدمه جعلته يُدرك جيدًا أن إعاقة قدميه ستلازمه ما بقي له من حياة.

"إنت برجلك دي متنفعش تشتغل".. انتفض الشاب فزعًا بمجرد أن تذكر تلك الكلمة التي لازمته حتي بعد أن تخرج من الجامعة، تلك العبارة التي جعلته يخرج مضطرًا من قريته إلي المحروسة بحثًا عن أي وظيفة تناسب ظروفه، حبس الدمع في عينية ألمًا، أبي أن يحرره ليسيل علي وجنتيه حفاظا علي ما بقي

لـه مـن كبريـاء، فأسـلم جفنيـه لنـوم عميـق انتظـارا إلـي مـا ستسـفر عنـه رحلتـه إلـي المحروسـة.

تلك أيضًا قصـة أخـري ليسـت مـن نسـج خيـال المؤلـف، وان كان شـابها بعـض التعديـل بالتأكيـد، واحـدة مـن مئـات الحقائـق المؤلمـة التـي يعايشـها أصحـاب القـدرات الخاصـة في هـذا البلـد الامـين، في تجاهـل واضـح لأصحـاب تلـك القـدرات، رغـم مـا يحملونـه مـن عزيمـة تفـوق الأصحـاء، فذلـك شـاب تمكـن مـن التغلـب علـي إعاقتـه، بـل وتمكـن مـن حصـد عـدد مـن الميداليـات الأولمبيـة في عـدد مـن الـدورات.

●●●

ملوك الغباء.. عباقرة صغار

الديسليكسيا

طفل صغير، لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد، رغم عبقريته الفنيه، يعاني خللاً عقليًا متطورًا، جعله لا يتقن القراءة والكتابة، كثيرًا ما يطرده المدرسين من الفصل، أو يضربونه بمنتهي القسوة علي أطراف أصابعه، أدمت تلك الضربات قلبه الصغير قبل أن تدمي يديه، ما جعله يكره تلك المدرسة، بل ما يتعلق بالتعليم برمته، هرب كثيرًا متجولاً في شوارع المدينة القاسية، والتي رغم قساوتها كانت أكثر رقة من ذلك العالم الذي ينتمي إليه.

طفل صغير، لم يكد يبلغ من العمر ما يجعله يفهم، لماذا لقبه معلموه بـ"ملك الأغبياء"، لماذا لا يدركون أنه يعاني مرضًا لم يدرك حتي معناه، "الديسلكسيا" dyslexia، مرض جعله يجد صعوبة في القراءة والكتابة، صعوبة في الإدراك البصري، صعوبة في تلقي العلم وسط محيط لا يقدر حالته، محيط لا يتعامل معه إلا من منطلق أنه غبي، فاشل، كسول، مجنون، لا يعيش حياته الخاصة كطفل، فقرر الإبتعاد عن الجميع، حتي أطفال شارع منزله، تجنبهم، رفض اللعب معهم، بل إفتعل الكثير من المشاكل، حتي والده لم ينصفه، طرده من رحمته، أرسله إلي مدرسة داخلية بعيدة بحثًا عن حل لحالته.

طفل صغير، بائس، كثيرًا ما يتسائل، لماذا يفشل في القراءة والكتابة، لماذا يختلف عن أشباهه من الأطفال، هل يستحق الرسوب في كل المواد، أسئلة جعلت عقلة المُصاب بـ"الديسلكسيا" يضطرب بشكل أكبر، حاول كثيرًا أن يقنعهم أنه ليس بفاشل، ليس بغبي، فقط عقلة الصغير لا يتقن تلك القدرات القائمة علي الحفظ والتكرار، وأنه يفضل طريقة أخري لا يتقنها هؤلاء المعلمين، طريقة تعتمد علي التفكير والإبداع، فذلك الطفل فنان قادر علي رسم أفكاره بأسلوب يبلغ من الحرية ما لم يفهمة كل من قابله.

رجل ناضج، فنان بطبعه، عاش حياة لم تختلف كثيرًا عن حياة ذلك الطفل الصغير، قاسي الأمرين من مدرسين لم يفهموا طبيعه عقله حينما كان صغيرًا، فقد أُصيب يومًا بذاك المرض، "الديسلكسيا"، ولكنه نجا، فقد كافح كثيرًا، جاهد، تعلم، ليُصبح في نهاية المطاف مدرسًا للأطفال، إختار أن يمارس عمله في تلك المدرسة الداخلية، والتي استقبلت مؤخرا ذلك الطفل الصغير، ولأنه عايش ما يعايشه، فهم فورًا أنه طفل ذو طبيعة خاصة، وأن إضطراب عقله يجعله يكتب الحروف بطريقة مقلوبه، وأنه يعاني من مرض يُسمي علميًا "عُسر القراءة"، أو الديسلكسيا.

رجل ناضح، فهم أن هذا الطفل يُعاني كثيرًا، لذا قرر أن يعالجه، ولكن بالطريقة التي يشعر من خلالها أنه ليس مريضًا،

ليس مختلفًا، ولكنه متميز دون غيره من أطفال جيله، وأن جل عظماء التاريخ كانوا يعانون من هذا "الديسلكسيا"، وأن عقول مثل ألبرت أينشتاين، ليوناردو دافنشي، توماس أديسون، بابلو بيكاسو، والت ديزني، آجاثا كريستي، كانت تعاني عُسرًا في القراءة، وأن حتي أستاذة الذي يقف أمامه اليوم كان مثلهم، قبل أن يتغلب علي هذا "الديسلكسيا" اللعين.

"إنت فاكرني هندي".. عبارة كثيرًا ما كُنا نطلقها سخرية دلالة علي عدم الإدراك، رغم أنها فقدت معناها منذ سنوات، فمنذ أكثر من عشرة سنوات مضت، وتحديدًا عام ٢٠٠٧، أخرجت السينما الهندية ذلك العمل العظيم، "تاري زمن بار"، أو "نجوم علي الأرض"، ذلك العمل البوليودي الذي أبدع في كتابته السيناريست الكاتب «أمول جوبت»، والذي قدمه بمساعدة زوجته، محررة السينما الهندية، ديبا بهاتيا، وقام بإخراجه وتمثيله الفنان «عامر خان»، والذي لعب فيه دور المدرس «رام شانكار نيكوم»، في حين لعب دور الطفل «إيشان»، وقام بدروة بمنتهي البراعة الفنان الصغير «دارشيل سفاري».

كم «إيشان» في مصر؟، كم طفل يعيش بيننا يعاني عُسر القراءة؟، كم ضحية قضي عليها هذا «الديسلكسيا» اللعين، وكم من غبي إدعي أنه مُعلم لم يكتشف مثل هذا الـ«إيشان» في فصول

مدارسنا؟، طفل لا يعاني غباء أو فشل في تلقي علومه، ولكنه يعاني من ضعف القدرة على فهم اللغة المكتوبة، وأن هذا المرض اللعين يؤثر بشكل كبير علي الطريقة التي يفهمها المخ، زيارة واحدة لمدرسة واحدة ستجعلنا ندرك حجم المأساة.

●●●

تعيشي يا ضحكة مصر

علي خط النار، عالمٌ أخر، عالمٌ غير تلك العوالم التي تعرفونها، أُناس ليسوا هم من عايشناهم من قبل، منهم أخي وجاري وابني وصاحبي وأستاذي، إلا إنهم يوم بعد يوم، يتحولون، يتغيرون، يدركون أنهم يعيشون واقع لا ندركه، فقط نتابع أخبارهم عبر الأثير، نتدثر أغطية برد الشتاء، أو نروي ظمأ حر الصيف بالمثلجات، ثم نتغنى برائعة الشاعر أحمد فؤاد نجم والموسيقار كمال الطويل: «دولا مين ودولا مين دولا عساكر مصريين».

منذ سنوات ليست بالبعيدة، وأثناء تواجدي بأحد مراكز التدريب العسكري بالقاهرة، انتظر أخي الذي أصبح جندي مجند بالقوات المسلحة، هالني ما رأيت، شباب صغير، ينطلق إلينا بزيه المموه، زادتهم سمرة شمس يوليو الحارقة صلابة الفراعين الأولين، تعلو وجوههم المشرقة بسمة لم تفارق شفاههم، بريق عيونهم الجذلة تشعرك أنهم ما عانوا مشقة قط، اقبلوا فرحين، ليس للقاء الأهل والأقارب، ولكن لاستقبال ما لذ وطاب، حتي أخي، كفهد جائع انقض علي ما نحمله من طعام وكأنه صيد ثمين.

«هتعشي اية ليلة الدخلة يابا الحج».. بمجرد أن هدأ دخان المعركة، لم ينتظر «مسعد أبو المعاطي»، ذلك النجار الصغير الذي جاء من بحري ليدافع عن تراب وطنه طويلاً، بأنفاس مشبعة برمال سيناء، وبصوت مازح لم يخلو من الجدية أطلق الفتي ذاك التساؤل، راجياً قائده أن يُخرجه من تلك الورطة، فلم يجد الشاويش «محمد» سوي كتم ضحكة كادت أن تفلت منه، أطلت من «مسعد» نظرة طفل سُلب لعبته المفضلة، «متهيألي يا مسعد الفراخ ظريفة»، أخرجت إجابة «شوقي» رفيق السلاح الفتي من تلك الحالة الغاضبة، فعادت إلي وجهة تلك الابتسامة الطيبة قائلاً بصوت خبيث: «لالالا فراخ اية يا عم شوقي.. دا فيه ناس قالت لي إن السمك كويس أوي في ليلة مفترجة زى دي».....

منذ خمسة وأربعون عاماً قدم لنا الثنائي العبقري، الكاتب والسيناريست مصطفي محرم، والمخرج علي عبد الخالق، واحدة من أروع الأعمال السينمائية في التاريخ المصري، «أغنية علي الممر»، إحدي مسرحيات الكاتب العظيم علي سالم، ليصنعوا أعظم مشاهد البطولة للجندي المصري، ومدي كفاحه عقب نكسة لم يشاركوا فيها، البطولة هنا لم تكن في الصمود والحفاظ علي الموقع من السيطرة الإسرائيلية، ولكنها في الجانب الإنساني للمواطن المصري، فخرجت الصورة بتلك الواقعية التي جسدها أبطال من طين هذه البلد.

«نفسي يبقي عندي بيت صغير.. وعيلين.. وبطانيتين صوف.. وأدفي بقي».. لم ينس «مسعد»، والذي برع في أداء دورة الفنان العظيم صلاح السعدنى، تلك اللحظة الرومانسية مع حبيبته التي تركها ليدافع عن وطنه، كصقر راح يراقب الممر من أعلي الحصن، وكإنسان راح يتذكر حب العمر، يستأنس بها وحشة الصحراء القاحلة، يحلم باللحظة التي سيعود إليها ليحقق ذلك الأمل الذي وعدها به، «بيت صغير، وعيلين، وفوقهم بطنيتين صوف، ويدفى بقي ابن المحظوظة»، حقا هو حُلم بسيط، لكنه بالنسبة له كان أمل عظيم، بمجرد أن تضع الحرب أوزارها سيعود إلي قريته ليحققه.

المشكلة التي كانت دائماً ما تؤرق الجندي مجند مسعد، ولم يجد لها حل، «هيتشعى اية ليلة الدخلة»، لا تتعجبوا فقد كانت تلك هي كل مشاكل هذا الفتي الصغير، وفقاً لرؤيته فليلة مفترجة كتلك يجب أن يكون لها طقوس خاصة، وإلا ضاعت بركاتها، ويفشل في تحقيق حلم «العيلين»، وبدل ما يشتري بطنيتين يوفر بطنيه، ضاحكاً، تذكر موقف تلك الحبيبة تعيسة الحظ، وكيف أنها أصرت آلا يذهب إلي الجبهة قبل أن يكتب عليها، «تقولش لقت لقية»، لكن تظل المشكلة، لقد انتهي من كل شيء، حتي فرش البيت الصغير صنعه علي يده، وقامت حبيبته بتفصيل الستائر، لكن ما يحير هذا الصغير، «هيتعشي اية ليلة الدخلة».

هـل تذكـرون زيارتـي لأخـي بتلـك الوحـدة العسـكرية، يومهـا تذكرت مقولـه والـدي رحمـة الله عليـة، «يـا بنـي الحيـاة علـي الجبهـة شـيء أخـر.. المـوت هنـاك هـو القاعـدة ومـا عـدا ذلـك اسـتثناء»، تلـك اللحظـة فقـط، أدركـت السـبب الحقيقـي لتلـك الحالـة التـي ظهـر عليهـا شـباب ظلـوا ٤٥ يـوم وسـط الصحـراء، نفـس الوجـه البشـوش، نفـس الضحكـة الجذلـة، حتـي بريـق العـين، لا يختلـف كثيـراً عـن «مسـعد» في أغنيـة علـي الممـر، كان لديهـم نفـس الحلـم، فانقضـوا علـي مـا نحملـه مـن طعـام.

«أنـا راجـع.. مسـعد أبـو المعاطـي ميموتـش أبـداً.. بشـريفي لنعمـل حتـة ديـن دخلـة محصلتـش».. أعلـي التبـة أمسـك سـلاحه العتيـق متحفـزاً، جـف حلقـة، تشـققت شـفتيه، طيلـة يومـين كاملـين لـم يدخـل جوفـه شـربه مـاء، علـي يمينـه انهمـك حمـدي في تلحـين قصيـدة النصـر، بـين الفينـة والأخـرى يطلـق صفيـراً معبـراً عـن فقـرة أو حتـي جملـة، فتذكـر وعـده لحبيبتـه عـن «الدخلـة اللـي محصلتـش»، ابتلـع ريقـه بصعوبـة كادت تجـرح أمعائـه، ثـم التفـت إلـي رفيـق سـلاحه مازحـاً: «بشـريفي يـا حمـدي لتحـي الفـرح بتاعـي»، كالعـادة يطلـق الجميـع العنـان لضحـكات بائسـة لدعابـة ذلـك الفتـي.

انتبـه مسـعد فجـأة إلـي ذاك الصـوت المعدنـي، مُعتدي إسـرائيلي، يُطلـق تحذيـره بسـرعة تسـليم الموقـع وإلا سينسـفونه، كان بين خيارين

كلاهما أحب إلي نفسه من روحه، بين أن يُخرس ذلك المُحتل إلي الأبد ويخسر حياته، وبين أن يفي بوعده لحبيبته ويخسر وطنه، لم يطل الإنتظار، فقد أدرك أن وطن ضائع لا يمكن معه الحلم بالبيت الصغير، ولا بالعيلين، ولا بالبطانيتين، وطن ضائع لا يعني علي الإطلاق دفء، فانطلق صوب صاحب التهديد ليخرسه إلي الأبد، وقبل أن يحتفل بنصره جاءته رصاصة الغدر ليقضي نحبه.

مات مسعد أبو المعاطي، مات قبل أن يجيبه احد من الباقين، هيتعشي إيه ليلة الدخلة، تلك الليلة المفترجة التي يحلم بها سنين عددا، صعدت روحة إلي السماء دون أن يحقق حلمه، سكنت أنفاسه إلي الأبد، تلاشت ضحكته التي اشتهر بها بين اقرنائه، ضاعت ضحكته وبقيت ضحكة حبيبته، ولأنه ذلك الفتي الشقي، لم يكن صعوده إلي السماء كأي صعود لشهيد من قبل، راح يرقص ويتغني بأنشودة الخال عبد الرحمن الأبنودي، «أبكي.. أنزف.. أموت.. وتعيشي يا ضحكة مصر.. وتعيش يا نيل يا طيب.. وتعيش يا نسيم العصر.. وتعيش يا قمر المغرب.. وتعيش يا شجر التوت.. أبكي أنزف أموت وتعيشي يا ضحكة مصر».

●●●

الفهرس	الصفحة

إهداء :..... ٥

البداية .. مشهد من التاريخ:..... ٧

«شهريار» القرن الواحد والعشرين:..... ١٢

رسالة تاج الدين:..... ٤٥

النيل مجاشي:..... ٥٦

مولانا الإمام :..... ٦٧

سأخبر أللّه بكل شيء:..... ٧٨

مقابر الموتى الأحياء:..... ٨٦

المنبوذ:..... ٩٥

تغريدة قاتلة:..... ١٠٣

الهاربون من الحياة:..... ١١١

حكايات الغريب:..... ١٢٠

راقصات عصر التنوير:..... ١٣٠

خفافيش الظلام:..... ١٣٦

أبواب الجحيم:..... ١٤٣
الذئب ذو الحذاء البشري :..... ١٤٩
الدواء فيه سُم قاتل:..... ١٥٤
سيف المُعيق:..... ١٦٤
الديسليكسيا:..... ١٦٩
تعيشي يا ضحكة مصر:..... ١٧٢

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر